لهذا أخفينا الموتى



وائل الزهراوي

لهذا أخفينا الموتى

إلى كل أولئك المجهولين

الذين رحلوا لأجل الوطن

لهذا
أخفينا الموتى

وائل الزهراوي

لهذا أخفينا الموتى

وائـــل الـــزهـــراوي

روايـــــــــــة

لوحـــــــــة الغلاف:
هدية من الأستاذ الفنان نجاح البقاعي

دار إتقان للنشر
2020

عدد الصفحات 160
القيـــاس 21×14

ISBN 978-605-06017-0-1

مقال الدكتور برهان غليون

عن رواية لهذا أخفينا الموتى

ليست السجون السورية أماكن لحجز حرية المعتقلين عقاباً لهم على القيام بأعمال مخالفة للقانون، وتنفيذاً لحكم قضائي، الهدف منه حماية القانون الذي ينظم العلاقات بين الأفراد في مجتمع متمدِّن، ولا تعبر عن استراتيجيات قمعية تسعى من خلالها السلطة السياسية، عن طريق القهر والتعذيب وكسر إرادة المعارضين لها، إلى انتزاع معلومات إضافية، وإكراه المعتقل بالعنف على الاعتراف بسيادتها المطلقة والتسليم لها، ومن ثم ردع النشطاء عن المثابرة، وإخراجهم من حسابات المجتمع وإخراج المجتمع من حساباتهم. إنَّها تمثل، كما يروي وائل الزهراوي في شهادته/ روايته "لهذا أخفينا الموتى" حالة استثنائية، الهدف الأول لها القضاء على أرواح المعتقلين الجاحدين قبل القضاء على أجسادهم. نحن هنا امام حالة استثنائية للقتل المقطَّر الذي لا يهدف إلى تغيير اعتقادات الأفراد الضحايا، أو حتى إلى كسر إرادتهم، ولكنه يمارس على ضحايا مكسورين ومستسلمين أصلاً حُكم عليهم سلفاً بالإعدام. إنه الموت تحت التعذيب الذي يصبح معه الموت نفسه خلاصاً لا يمكن نواله، كما في جحيم الأديان السماوية التي لا يكاد فيها جسد المدان يكمل احتراقه، حتى يستعيد حياته ليحترق ثانية إلى ما لا نهاية.

يروي وائل، في شهادته، بلغة مفجوعة قصصاً عن الأهوال التي كان شاهداً عليها وموضوعها معاً، والتي تتحدَّى الخيال، مثلاً عن ذاك الشاب الثلاثيني الذي

رموه في الزنزانة الجماعية مكمم الفم، فقد قضى بطريقة من الصعب تصور أكثر شناعة منها، مستخدمين الأسلاك الشائكة بعد غرسها بطريقة شيطانية داخل جسم المعتقل، حتى يموت نزفاً.

"كانوا يُجلسون المعتقل على كرسي خشبي، بعد أن يكونوا قد كبلوا يديه وعصبوا عينيه، ثم يأتون بالأنابيب التي تستعمل في البيوت لتوصيلات المياه، ويدخلونها في فمه، حتى تصل قريبا من معدته، وهو يختنق بصراخه. وحين تبدأ عيونه تنزف، يعرفون أن الانبوب وصل إلى الحد المطلوب، ثم يدخلون داخل ذاك الأنبوب الأسلاك الشائكة التي تكون لها مئات النتوءات القاتلة، ويستمرُّون في دفعها، حتى يبدأ المعتقل بلفظ دم معدته، وهو لا يستطيع أن يصرخ، ولا أن يستنجد. ثم يسحبون الأنبوب من معدته، ليبقى السلك الشائك عالقا من معدته حتى فمه. ومع أول حركةٍ يقوم بها المعتقل، بعد أن يتركوه، تنغرس أشواك السلك في داخله، من أعلى حلقه حتى أدنى معدته، وهو يموت ألف مرة بصمتٍ أبدي عميق. وكانوا فوق ذلك يضربونه وهم يضحكون و يقولون له: اهتف الآن، اهتف للحرية الآن، كن رجلاً واهتف".

لم يكن الانفلات في الوحشية والعنف سلوكاً عفوياً لكلاب حراسةٍ دُربوا عليه، لصالح معلمهم، ولا نتيجة أخطاء ارتكبها أفراد تمرَّسوا في التعذيب وصار "التجويد" فيه، والمباراة في إنزاله بأقصى الأساليب الوحشية بالمعتقلين الضحايا، معيار تفوق بعضهم على الآخر.

إنه لا ينفصل عن الوظيفة الجديدة التي أنيطت بالنظام الاعتقالي، السياسي والمدني، الذي تقوم بخدمته فروع أمنية، وسجون تقليدية، وغرف تعذيب

لمليشيات متعدِّدة، في سياق الحرب الشاملة التي صمم النظام القائم على خوضها لوضع حدٍ لثورةٍ شعبيةٍ بدت منتصرة بكل الحسابات.

هكذا تغيرت وظيفة السجون ومناهج عملها إذا صحَّ التعبير، فلم تعد منظومات إعادة تأهيل "للمنحرفين"، وتحولت من أماكن احتجاز مؤقت لموقوفين، معارضين أو جناة مدنيين، إلى ساحةٍ إضافيةٍ لحرب الإبادة التي تجري على الساحات العديدة الأخرى، كل منها بوسائلها ومناهجها الخاصة. ومن الواضح أن المعتقلات هي التي اختصت بنوع القتل الأكثر شناعةً وقسوة، حيث تعيش الضحية موتها كل ساعة وكل ثانية على مدى أشهر، قبل أن يأتي ملاك الموت لتحقيق الخلاص.

لا تختلف مهمة سجون الموت و"رسالتها"، من حيث المبدأ، عن مهام الأساليب الأخرى للقتل، سواء كان بالغازات الكيميائية، أو بالبراميل المتفجِّرة التي تستهدف المدنيين و مرافق حياتهم الحيوية، أو بحصارات التجويع والتركيع، أو بالهجمات العسكرية التقليدية ومخلفاتها من المجازر الجماعية. تكمن خصوصيتها فقط في خصوصية ضحاياها من الناشطين الفعليين، أو المحتملين، وفي شخصنة القتل وفردنته، وتحو يله إلى عبرة ودرس لا ينسى، ولا يكف عن ملاحقة الذاكرة وجلدها وتغذية مشاعر الحقد والكراهية والانتقام، التي لا بديل لها في إعادة إنتاج وتعميق الدوافع والسلوكيات العدوانية لفاعليها. هدفها الرئيسي هو "كسر العظم"، واستبعاد أي تسوية أو مصالحة أو حوار بين الفرقاء وتأكيد مبدأ: قاتلاً أو مقتولاً، أي الذهاب في العداء والعنف المرافق له إلى حالاته التي لا رجعة بعدها.

هكذا لم يقتصر دور المعتقلات السورية على فتح جبهةٍ حربيةٍ موازيةٍ ومكملة

للجبهات الأخرى، تخصَّصت بالقضاء، بالدرجة الأولى، على جيل النشطاء الذي فجر الثورة، أو ساهم في استمرارها، من خلال نشاطاته التنظيمية والفكرية والإعلامية، فحسب، ولكنه عمل بشكل أكبر على بناء جدار الحقد والعداء الدائم، وتغذية ضرع الكراهية وروح الانتقام الذي سوف يسمِّم حياة السوريين لحقبة طويلة قادمة.

لا أحد يعرف بالضبط عدد الذين قضوا على هذه الجبهة، فقد أحصت الشبكة العربية لحقوق الإنسان أكثر من 98 ألف مغيب، لا يُعرف مصيرهم. ولكن هذا الرقم لا يقدر أعداد المفقودين الذين لم تستطع الشبكة معرفة أسمائهم. ولعل الرقم تجاوز، حسب الشهادات المتقاطعة، مئة وخمسين إلى مئتي ألف ضحية، قضوا تحت التعذيب في ما سمَّته منظمة العفو الدولية نفسها مسالخ بشرية . وقد قتلوا بطرقٍ وظروف مشابهةٍ للتي رواها وائل الزهراوي، وقبله قيصر وآخرون. لم يعدموا ولكن مُثِّل بهم حتى لا يبقى لحياة الإنسان قيمة أو معنى. وحتى تصبح حياة الإنسان، كما هي حقيقة في ظل نظام تأبيد السلطة العائلية، كحياة أي حشرة أخرى.

في روايته/ شهادته، المخضَّبة بالألم والدم والدموع، لم يكف المؤلف عن التساؤل عن معنى هذا التعذيب ومجانيته. لماذا تضرب الضحية حتى الموت، وتقطع أوصالها وتُكسر عظامها؟ ولماذا التمثيل بجسد الضحية، وحرمان الضحايا من الطعام أسابيع حتى يموتوا من الجوع، ما داموا قد حُكموا سلفاً بالإعدام؟ ولماذا الحرص على إذلالهم وإهانتهم بإجبارهم على أكل برازهم قبل قتلهم وتصفيتهم ؟ ماذا يفيد التعذيب؟

الجواب: ما استهدفه نظام التعذيب "المجاني" في الواقع هو أقل عبثيةً مما يبدو في الظاهر. إنه الرغبة في عدم الاكتفاء بإعدام الحاضر، وإن ما العمل على تقويض المستقبل، وترك المجتمع السوري الذي لفظ تأبيدة حكمه كما أراد، في العراء والفوضى الشاملة. ما لم نحفر عميقاً لاقتلاع آثار هذه الريح الهمجية المنبعثة من قبور دارسة، ونعمل على إعادة بناء الجسور ومعالجة الصدمة الإنسانية وفورة المشاعر السلبية ونكشف عن مكامن الجنون والعدمية، لن يكون هناك أي أمل في التعافي من هول الفاجعة، والعودة إلى تطبيع العلاقات الاجتماعية. سوف يسكن هذا الجرح الفاغر فاه طويلاً في نفوسنا، ولن يلائمه سوى تطبيق العدالة وتعبيد الطريق نحو حكم القانون والحق والمدنية.



مقال الأستاذ أحمد العربي

عن رواية لهذا أخفينا الموتى

لهذا أخفينا الموتى

رواية لكاتبها وائل الزهراوي عن تجربة اعتقاله، وما عايشه من ظروف قاهرة ولا إنسانية، ومعاناته إبان الثورة السورية التي بدأت في 2011 م.

تبدأ الرواية أو الشهادة من وائل الذي يكتب بصيغة المتكلم يُخبر قراءه عما حصل معه.

وائل في المعتقل في أحد فروع الأمن، نفهم بعد ذلك أنه في مدينة حلب، ونفهم أيضاً أن وائل أحد الناشطين في التظاهر في الأيام الأولى للثورة.

وائل داخل مسلخ بشري بكل معنى الكلمة، المحقَّق معهم يعودون إمَّا موتى من آثار التعذيب أو بين الحياة والموت، لا أهمية لحياة المعتقلين، فإن مات أحدهم تحت التعذيب أو في أثناء التعذيب المستمر المصرح به للسجانين، يُرمى في غرفة الموتى أو في الممر الضَّيق في قبو فرع الأمن، يتعايش وائل مع استباحته وهدر إنسانيته رغماً عنه، المهم أن يستطيع مواصلة الحياة.

عاش وائل والمعتقلون حوله أهوال عذاب لم يكن يحلم به أو يتصوره، ويمكن أن يعيشها البشر، أشكال التعذيب متنوعة بجميع أدوات الضرب والشبح والدولاب والصعق الكهربائي والحرق بالشمعة. الأسوأ من التعذيب: التجويع، والتعطيش، ومعايشة المعتقلين الميتين حولهم كل الوقت. الهدف الأساسي للمعتقل أن يحافظ على حياته وعقله، ينجح القليل بذلك، الأغلب يموت بهذه الظروف أو

يجن ثم يموت، كثيرين يقتلون بالتحقيق أو بتعذيب السجانين المفوضين بشكل مطلق بحياة هؤلاء البشر المقرر تعذيبهم أسوأ تعذيب وأطول وقت ممكن، وإن ماتوا بعد ذلك فلا مشكلة. هؤلاء المعتقلين ضحية جروح وكسور وأمراض لا تُعالج بل تتفاقم لتصبح أوبئة مؤلمة ومهلكة، معايشة جثث الموتى والمصابين والدود ينهش بهم، معايشة استدعاء المعتقل للتحقيق، إما لا يعود مطلقاً، أو يعود ميتاً، أو يعود مهشماً بين الحياة والموت، قد يستمر بالحياة وعلى الأغلب يموت بعد وقت قصير. التحقيق؛ لا تحقيق فقط مبرر لمزيد من التعذيب والقتل.

عائلات كاملة أب وأم وأطفالهم، يُقتل الأطفال تحت بصر الأهل وتُغتصب الأم وتقتل، ويُقتل الأب بعد أن فقد عقله، هذه نماذج متكررة يشاهدها وائل ولا يستطيع أن يفعل شيئا، بالكاد يستطيع الحفاظ على حياته.

يعايش وائل كل ذلك وهو موقن أنه سيموت مثل غيره في المعتقل، تهيمن عليه صورة طفلتيه، وما أخبارهم ؟ وكيف يعيشون في الخارج ؟ هم بقايا الأمل الذي يربطه بالحياة خارج المعتقل، يستدعى للتحقيق مجددا ولا جديد عندهم، للكن رحلة العذاب تتجدد، يتعايش مع من حوله يذهل من قدرة البعض في هذه الظروف القاسية واللاإنسانية أن يبتسم وينصح و يصبِّر ويزرع الأمل، أن يتفانى في خدمة غيره من المعتقلين، وأن يتقدمهم لينال قسطهم من التعذيب، وهذا يعني أن يموت في أغلب الأحيان.

يُستدعى وائل ليبلغ أنه سيُفرج عنه، لم نعلم لمَ اعتُقل إلا تكهنات، أنه ناشط بالتظاهر، ولا لماذا أطلق سراحه يعود إلى بيته وكأنه خُلق من جديد، ممتلئاً رعباً من هول ما عايش.

عاد لحلب التي وجد أنها انقسمت؛ بعضها محتل من النِّظام كما عبَّر، والبعض في يدي الثوار، لكنهم تحت الحصار والقصف والدمار والموت المحتمل كل الوقت، أصبحت حياة الناس جحيماً بين انتظار رغيف خبز لا يأتي وأطفال أدمنوا الجوع، ومحاولات العبور للشطر الآخر للحصول على خبز وبعض خضار ليكون الثمن طلقة قناص وموت جديد يتراكم في قائمة موت السوريين.

يعاود الأمن اعتقال وائل، لتعود قصة الاعتقال والعذابات المصاحبة لها مجددا، ثم يفرج عنه دون أن يعرف لماذا اعتقل.

عاد مجدداً لمعاناة حياة الحصار والتجويع والقصف والتدمير لمدينته حلب. وفي يوم يُبلَّغ أن الأمن يبحث عنه. يقرر الهرب يحصل على هوية مزورة، ويتوجه إلى الحدود التركية، وهناك يصل إلى حاجز يسيطر عليه الثوار، يشعر بالحرية والسعادة، يخبرهم عن حاله، لكنهم يكذبونه ويتهمونه بأنه قد يكون مخترقاً للثورة ومخبراً للنظام.

يصاب بالصدمة والخيبة وتساءل إلى أين تقودنا الثورة والثوار؟

كان قبل هروبه قد زار بيت أحد المعتقلين الكبار بالسن الذي أصرَّ عليه بزيارة بيته. نعم كان هذا الرجل قد هرب من سوريا إبان الصراع مع النظام في ثمانينات القرن الماضي إلى الغرب حيث صنع نفسه و بنى مجده الاقتصادي، لكنه بقي يحن للبلد وللحرية، عندما حصلت الثورة عاد إلى سور يا ليعتقل مجدداً ثم يُقتل ويدفع ثمناً متأخراً لصالح النظام. تنتهي الرواية؛ ووائل بعيد عن سوريا في قارة أخرى، يدوِّن ما حصل معه ومع كثير من الشعب السوري، يدوِّنه شهادة للتاريخ ، ووثيقة لعل العدالة تتحقق يوما ويحاسب نظام مستبد همجي مجرم عن أفعاله كلها.

في تحليل الرواية نقول: نحن أمام رواية مؤلمة.. مؤلمة جداً، شهادة للتاريخ، توثق أفعال لنظام لذاكرة الشعوب، وانتصاراً للحق وللعدالة القادمة يوماً، منتصرةً للشعب السوري وما قدم من تضحيات، موثقةً الألم ناشرته للمعرفة والهواء النظيف، وليوم ما تشرق به شمس الحرية.



إن كان خصمُكَ أكبر من حُلمك ..
ليكن إصرارك أعمق من ألمك ..

عمر قشّاش

توالت سنوات طويلة، وأمام ذاك المبنى في تلك الليلة البعيدة، حيث صقيع كانون المصلوب في نبوءات آخر ساعات العمر جمَّدَ طيَّات الطِّين التي وارت أجسادنا العارية في تيك السَّاحة المنسية.

ونحن تسعة موتى مكبَّلين نَضرعُ تحت ذهول الانتظار لعل المعجزة تتسربُ من ثقوب ذاك الموت المُجهد الخطوات.

مضى يومان ونحن دون رشفة ماءٍ واحدة، وأفواهنا أمستْ كشغفِ الملح التَّائهِ بأشواكِ فناءٍ مهجور.

والمعتقَل الذي عن يميني كان رفاق العذاب يهمسون له، لكنه أضاعَ مسارب الإصغاء، التهمه العطش، وجثته اتكأت على العتمة تلملم بقايا سعال الوطن المغدور، عيوننا المعصُوبة ألِفَتْ الظَّلام الذي كان يسترُ جثثَ رفاقنا المرميَّة في العراء حين سمعتُ ذاك الصوت المختنق يقول: "لقد أتى".

لحظات، وبدأت أشعر به على جسدي. المطر أخذ ينهمر، وبهذا سنلعق بعض قطرات الماء المنساب بين شقوق البلاط المرصوف. القطرة الأولى وقعت على صدغي الأيمن، يا ليتها ثلمتْ لحمي لتبلّل فمي، لكنها انسابت وغابت في التّراب الذي خبأ تحته أرواحنا المهشمة الظّلال.

ازدادت غزارة المطر، ورُحنا نرتشف من بين شقوق البلاط بعض قطرات الماء، كنت أحسبُ أنهم نَسونا لكنهم كانوا دوماً حشود الدناءة المضفورة بالسُّعار، وما إن رأونا نحاول أن نلعق الأرض حتى عدا اثنان منهم نحونا يرتدون ظلالهما التي لا تفارق صرخات العذاب، وها هي رائحة المطر سترتدي بعد قليل بقع الدَّم الهاربة من أروقة العويل.

وحين ذات غدر رفع السَّجان الكبل وانهال به على جسدي المتجمد من البرد فانفلع لحم فخذي وكأن أحدهم صبّ عليَّ لهيب الجحيم، وراحَ يُكملُ على ظهري، والكبل يثأر من قطرات المطر المشبعةَ باليباس، سياطهُ أزاحت العُصبةَ السَّوداء عن عيني فتسرب ضوء الصباح قاسياً كأن الشَّمس كلها أمامي، كان يهوي بكبل الدَّبابة على رأس المعتقل عن يميني، كررَّ ذلك طويلاً، لكنَّ المسكين كان في عالم آخر هجَرَ جسده ومضى نحو الوطن، صرخ به عدَّة مرات، ركله وأشاح وجه الضَّلال الذي يرتديه ومضى.

استلقينا هناك تسعة معتقلين، وحين أوقفونا عرفنا أن اثنين منَّا قد رحلا إلى ممالك البرد والعطش. وآثام المشهد الآتي توقظ فينا انتظار الخوف وشيخوخة الفناء، وكل شيء يبدو موشىً بثوانٍ تركض نحونا وهي

تحمل رائحة الموت العتيق الرابض هناك. الخوف من التَّعذيب ظلامٌ يخشاهُ كل البشر، لكن المخيف حقاً أن نعيش بوطن يحكمه هؤلاء.

خطوات قليلة ورأيت أمامي بعض البلاط المكسور تَجَمّعت فيما بينه حفنة ماء وبعض قطع البُصاق تسيل نحوها كي تختلط بها عبرَ أخاديد الأرض، وكأنَّ أحداً قد عصر عمري كله ظمأً في حفنة الماء تلك، ودون أن أفكر بالسَّياط التي ستلهب ظهري، رميت ذاتي فوق شقِّ البلاط مأخوذاً بلهفة الارتواء وأغرقت وجهي فيه وابتلَّ فمي أخيراً.

لقد سبقتُ البصاق وشربتُ بعد يومين من الموت عطشاً، الآن سيمزقون جسدي، إلا أن رغبتي برشف حفنة الماء تلك كانت أبعد من عصر الجفاف الذي كان يسكنني. إنها رغبة الإنسان في كشط جروحه التي بالكاد التَّأمت رغم أنه يعرف ألا شيء سيحصل سوى النزف، سقطتْ العُصبةُ السَّوداء عن عيني، وهناك غير بعيد وقف أحد السَّجانين يتثاءبُ متدثراً بمعطفٍ روسيٍّ معتمراً على رأسه قبعةً من الصُّوف هُرِعَ نحوي بعد أن تناول الكبل من أحد السَّجانين بقربه، بينما انقلبتُ أنا على ظهري خوفاً من أن يصيب فخذيَّ اللذين كانا ما يزالان ينزفان من حريق الدَّقائق الفائتة، رمى قبعته لأحد رفاقه واعتلى جسدي بحذائه المُتخم بقطع لحومنا، وهوى الكبل الأول على رقبتي وكأنه فصلها عني، وأقبلَ الألم وهو يلتحف الصقيع ليقتلع عروق قلبي من الوجع السَّاكن في ذرات أنسجتي، أخذ يصرخ وأنا أرى كل شيءٍ يمر ببطء شديد، ثوانٍ قليلة وراحت خيوط الدم تنساب من صدري وأسفل أحشائي، إن الحريةَ لا تهزم الخوف لكنها حتماً تكشف

ما وراءه، رُحتُ أنظر إليه وأراه قد غطى نصف السَّماء، كان عملاقاً كبيراً بحجم شفقتي عليه.

أحرقَت السَّياط جسدي المختبئ بالوحل الذي غدا جلداً آخر، نزلَ من على صدري وغرس قَدَمَهُ بين رقبتي ورأسي وراح يقفُ على رِجلٍ واحدة، شعرتُ أني أختنقُ باحتضاري بينما استطالت الثَّواني وتقيأتُ حفنة الماء التي رشفتُها، وهو يصكُّ أسنانه ويلوي رأسه ويُقسمُ أنه لن يرفع رجله حتى أستحيل جثة هامدة، أخذت أجأر وأَشرقُ بالدموع، لعلَّه يدعني ألقى مصيري دون أن تشيعني رائحة حذائه تلك، كان المشهد جميلاً لدرجة أني تمنيتُ أن يُرسمَ، فقد يراهُ يوماً قبل الموت.

وجهه الطافح بالدفء كان يتقطرُ خطيئةً وأنا عارٍ تحته أموت رويداً رويداً، وعلى حين بغتة انفرجت أساريره وراح يبتسم مُشيراً بإصبعه إلى أحد رفاقه الذي مرَّ صدفةً، فشتمه ضاحكاً وهو يتوعده بهزيمة نكراء الليلة، فأخذ يضحك مغمضاً عينيه ويدعو البقية كي يشهدوا كيف أنه ربحَ كل شيء البارحة ليلاً وطفقَ الجميع يضحكون. رفع رجله عني فشهقتُ بأحلام هتافاتنا الأولى وهي تنوح على من تبقى منَّا، وابتعد يخطو باتجاه صديقه الذي تقدم نحوه وهو يضحكُ بشدَّة، قبل أن يكمل خطواته، عاد نحوي وركلني بكلِّ قوته على فمي وهو يردد: هذه ثمن رشفة الماء، انكسر ضرسي وفاض الدم كأنه ينتظر النزف، انكفأتُ إلى الأرض وغاب وجهي في الطِّين المرتعد من ارتعاشي، رباه! لقد انتشلتني للتو من الموت شتيمةٌ عابرةٌ، إن هذا مؤلمٌ أكثر من وقع السّياط.

تكاثرَت القضبان على جسدي فنهضتُ أحمل جراحي التي غطت جسدي، إن الجراح مهمةٌ جداً فكيف للعروق أن ترى الضِّياء دون شقوق العذاب، ثورة الحواس فصلت وجهي المفجوع عن شفاهي المذعورة التي كانت لا تزال تقوم بحركات لا إرادية كأنها ترتشف بعض الماء.

هؤلاء التُّعساء لقطاء القاع أبناء وطني المرصودون بتعوذية الرَّذيلة حولتهم السُّلطةُ إلى يتامى الروح يلهثون خلف صرخات العذاب مسحورين بحب رائحة الدَّم، يسكنهم احتياج عميق لرؤية ملامح الموتى، لا يعلمون أن من يدرك معنى الحرية لن يُخضعه الاعتقال، أما من يعرف قيمة الوطن فلن يَردَّهُ حتى الموت، والحقيقة أن هناك فرق هائل بين أن تقرأ العذاب وبين أن تكون فيه.

آثار أقدامنا الحافية كخطى الشتاء الآتي وخيوط الدمِ المُنسابةِ منَّا وشرود عبراتنا بمدن البكاء السَّاكنةِ ارتجاف أطرافنا ونحن ندخل مبنى التَّحقيق حيث أوقفونا ووجوهنا تعانق الجدران، لقد نجونا منها في المرة الأخيرة، ولا نعلم كيف ستكون ملامح الموت فيها هذا اليوم، لقد ارتكبوا جرائم لا يمكن إثباتها وإن أفظع الجرائم في التَّاريخ هي تلك التي لا يمكن إثباتها.

نزعوا عن أعيننا الأقمشة السَّوداء ووقع الثَّواني بدا أشد غولاً من تيه نظراتنا المنفية الشَّرود، جاءت مجموعة منهم يحملون كل نعوت السَّنةِ العذاب، صرخ أحدهم بالبقية: الكل إلى الأرجوحة! كانت الالتفاتة نحوهم تعني الموت، لكن أكثرنا التَّفت وهو يصرخ: لا سيدي أرجوك، إلا الأرجوحة أرجوك. البعض كان يخشى الدخول بأنفاق آلام الموت الطَّويل، فالموت هنا رخيص وموجعٌ وعتمات المجهول فاجعة الرحيل، دقائق وسينتهي بك المطاف جثةً مرمية أمام باب المراحيض التي يتبول فيها الأموات الأحياء.

والأرجوحة تعني أن نستلقي أمام سُلَّم الطابق الأرضي المؤدي للقبو حيث الكثير من درجاته مكسورة الأطراف وحادة الحواف وتُطلُّ من نهاياتها القضبان الحديدة نتيجةً لتهشمِ أجزائها، وبعد أن يدسُّوا في أفواهنا

قطعةً من القماش كي يختنق الصُّراخ، يأتي اثنان من المسوخ فيمسك أحدهم بقدميّ المعتقل ويمسك الثَّاني برأسه لأن يداه مكبلتان، وبعضهم كان يحملنا من آذاننا ثم يؤرجحوننا في الهواء ويَعدُّون: واحد، اثنان، ثلاثة ...... ثم يرمون بنا في الهواء من أعلى الدَّرج، لنطير نحو الموت الجميل، ونسقط في أعماق الدَّم الذي نمت في قاعه حشائش الشَّوق للحرية.

كنت الثَّاني بين رفاقي التَّفتُ حولي أبحث عن أي وسيلة للإفلات من الموت، فانهال عليّ أحدهم ضرباً ، صفعني سبعة عشر مرة، لم أكنْ أكترث بيديه أو بوجهي، لم يعودا يعنيان ليَّ الكثير دقائق قليلة تفصلني عن الموت وفي مواجهة الموت لا شيء يخيف أكثر منه ذاته، أدواته تفقد بريقها ، والوقت تبلله بلاهةُ الأقدار والعمر يصغر ويصغر حتى كأنه لمحة ومَضت، و كأنك لم تولد بعد أو أنك بالأصل ميت، بأي حال لن تشعر أنك كنت أنت ذاتك كل ذاك الوقت في هذي الحياة.

أمسكوا المعتقل الأول من رجليه وجاء مسخ ثانٍ وأمسكه من أذنيه، كان رأسه في الجهة المقابلة لي، وملامحه مازالت أمامي تبكي الثَّواني التي يمر بها مني، فمه مغلق وهو ينظر إليَّ وبعينيه من الحسرة أكثر مما بهما من الخوف، ذرف دمعتين.

رفعوه وهو ينظر إلى السَّقف الذي تعلقت فيه صراخاتنا، راحَ ينتفض ويئنُّ بكل ما فيه، يبحث عن وهم غير هذه الثَّواني ليكون فيه، عن أي شيء

ينقذه، لكن المصير المحتوم حين يأتي يُلغي كل الأصوات.

وبدأوا يعدون ويؤرجحونه في الهواء: واحد، وهو ينتفض، اثنان.. ثلاثة.. وفي اللحظة التي رموه بها، سكن تماماً وتضوَّعَ بعيداً، والجدران بدت لي رمادية جداً والعمر العالي الذي عشته فقد كل صوره واختفى الهواء وكل مسببات الحياة.

ارتطم بالجدار ثم اصطدم رأسه بحافة الدرج، لم يتحرك أبداً، لم أكن أسمع سوى صوت ضحكهم العالي كأسوار ظلمهم التي بنوها خلال عقود ليخفوا فظائعهم خلفها.

أمسكني أحدهم من كتفي وهو يضحك ويردد: لا تخجل، لا تخجل. كنت مدهوشاً وكأنها لحظتي الأولى هناك وأردت أن أرى أبي، أردت أبي بشدة. وكان كل ما أريده أن أحفظ ملامحهم، كنت أنظر في وجوههم رغم أن ذاك يعني الموت ، كأن استحضاري لوجوههم هو كل ما أستطيع أن أفعله ضدهم، أريد أن أكون بعض وجعي، أن أغيب في لفائف صرخاتي كي لا أنسى يوماً أبداً، لقد كان القهر يسري في عروقي فتؤلمني الحياة.

وضع أحدهم أصابعه بفمي وحشر الكمامة فيه وربطها للخلف، أردت أن أقول أشياء كثيرة رغم أني لا أستطيع الكلام، ويداي المكبلتان كانتا كأنهما تستنجدان بي، حاولت أن أفعل أي شيء رغم أني عاجز عن أي شيء.

رَموني على الأرض وأمسك أحدهم بقدميَّ وأمسك الآخر برأسي،

شعرت بالأرض تدور بي وبغثيانٍ شديدٍ، وقلبي كأنه خرجَ مني وأمسى يراقبني هو الآخر.

حاولت أن أتخلص من بين أيديهم، حركت جسدي بكل ما لديَّ من خوف، فأفلتَت ساقي من يد السَّجان، ألقاني أرضاً وانهال عليَّ أحدهم بكبل الدَّبابة على معدتي وضربني عدَّة ضربات على رأسي كي أهدأ، وفقدت الكثير من خوفي تحت وطأة الألم، ثم حملوني ومرت الأرقام سريعة ورموني وأصبحت في الهواء.

وشعرت أني ما زلت هناك في زنزانتنا ولم آتِ للتحقيق هنا، وأن هذا غير صحيح وأن الألم الآتي بعد أقل من ثانية واحدةٍ لن يجتاح تاريخي إلى الأبد، وأن أبي لا بد سيأتي لينقذني، سقط ظهري على حافة الدرجة الأخيرة وكأن أحداً قطعني نصفين، انقلبت للطرف الآخر، لم أفقد الوعي، والمعتقل الذي سبقني كان راكداً تماماً. لحظات، وشعرتُ بشيءٍ سقط فوقي فدفنني في قاع الظلام، فكانت شهقات من سبقني هي آخر ما شاهدته في ذاك اليوم.

الدِّماء النَازفة، والعُيون التي تجحظ ثم تغمض للأبد، والشِّفاهُ المفقودة، والأصابع التي نزعوا منها أظافرها، وهذي الحُروق الغرائبية، وأصواتُ التَّعذيب التي استحالت كالوقت لا تهدأ أبداً، كانت تَبعثُ ذهولاً يسكنُ الحشائش الغارقة بدماء حروب التَّاريخ، الجثثُ المُلقاة أمام الباب كانت تُحدِّق فينا، وبعضُ العائدين من التَّحقيق ما يزالون يَحملون معهم قطعاً من البلور والحديد المغروس فيهم وهم يرتعدون ويصرخون، وكل معتقلٍ يؤوب إلينا يخبئ لوناً مختلفاً من العذاب.

منتصف الليل كنا ننصت جميعاً لذاك الأنين الذي كان يُوحِّدُ جراحنا، فعبراتُ البكاء تمتزجُ بالشَّهقات المختنقة عند سكرات الموت، كأننا جميعاً جرحٌ واحدٌ يبعثُ ذاك النحيب الذي يحدو لقوافل الأرواح المغادرة، الوحدة القاتلة التي كان يَشعُرُ بها كل أولئك المُعذبين رغم أنهم بيننا كانت تُحيل نظرات الوداع الأخيرة إلى دموع قهرٍ تنفر من عيونهم رغماً عنهم، والأكثر حظاً من كان يموت دون أن تحاصره وجوه من يحبهم، يتلمّسهم ثم يخفض يده ليتوه في أعماق الحسرات حيث الثَّواني تطول وتطول حتى تَلطُمَ وجهَ القدر.

الزنزانة التي رَمونا فيها كانت محطة مؤقتة في انتظار دور التَّحقيق، الذي يكون بدوره أحد بوابات الموت العريضة، كنا نجتمع على مداخل الموت من كل حدب وصوب، فجميع أنواع أفرع الأمن تظهرُ زينتها هنا وتتقيأ أبناء الوطن، نَحجُّ للعذاب الذي تعود على تكرارنا، يشمُّ أجسادنا برفق ثم يقضمُ كل مسامة منها، العذاب الأول في تلك الزنازين كان يتأتى من العدد المهول الذي يحشدونه في كل غرفة، فدون أي جُهدٍ منهم يمسي حُلم أن تمد رجليك معجزة لا تُطال.

كان علينا أن نتناوب، بعضنا يقف والبعض الآخر يجثو ليستعد للوقوف بعد قليل، وهكذا نمُضي كل الوقت ليلاً ونهاراً، ولا أحد يعلم متى يأتي دوره كي يذهب للتحقيق الذي كان يبتلع الكثيرين فلا يعودون منه أبداً، أحد أعمدة أساسات المبنى أخذت من الزنزانة متراً مربعاً على يمين الباب فكان هناك زاويتان صغيرتان في تيك الزنزانة التي تعودت على وجوه أجيالٍ طويلة من السَّوريين.

وفي ظلام الزاويتين ثمةَ خطيئة تكاد تشقَّق منها السَّماء، كان هناك ثلاثة معتقلين سبب لهم التَّعذيب شللاً كاملاً فأصبحوا مُقعدين لا يخرجون معنا إلى الحمامات، يتبرزون على أنفسهم وفي بعض الأحيان كنا نحفضهم بأكياس الخبز إن استطعنا، البول والبراز كان يغطى كامل الزاوية التي هم فيها ، ولكي تكون المأساة فجائعية الحضور، كان بينهم شاب ضرير اقتلعوا له عيونه وتركوا له ارتخاء البكاء.

والقروح التي كانت تأكلهم، تُحتم على المعتقلين الذين كانوا يبقون أياماً في انتظار التَّحقيق أن يتناوبوا على اقتلاع الدود المُترفِ بنعيم لحومهم المقدسة، رائحتهم يعجز أعتى البشر عن احتمالها، والحقيقةُ أنَّ أكثر ما هو خالد في ذاتي تلك البسمات التي كنت أراها على شفاه بعضٍ منهم، كانوا رغم كل ما هم فيه يبتسمون ويتذكرون أحباءهم ويتنهدون شوقاً للحياة التي باتت غابات الياقوت أقرب منها.

بسماتُ أولئك المظلومين كانت تنثر قطرات الفجر البعيد وترسم في داخلي نهارات مضيئة سيرونها يوماً رغم رحيلهم القريب، بسماتهم كانت تهزم وجه العتمة وتذرو ممالك الطغيان على بقايا خطواتهم المفقودة.

في الزاوية الثَّالثة كانت هناك ثلةٌ من المعتقلين يبدون كأنهم وصلوا للتو من عصورٍ أخرى، لحاهم الطويلة ونظراتهم اللامبالية وأصواتهم الخافتة، وروائحتهم التي تشبه كثيرا رائحة الزوايا الرطبة، تكشفُ أنهم أمضوا عُقوداً في السُّجون، المخيفُ في ذاك أن هناك ثلاثة أطفال قابعين بينهم يرتجفون ويبكون كل الوقت كانوا بين التَّاسعة والرَّابعة عشرة ينظرون غير مصدقين ما هم فيه، ثم يُخفونَ رؤوسهم بين أرجلهم ويعودون للنشيج الذي لا ينتهي.

حين فُتِحَ الباب مساءً وبدأنا نخرج دفعات إلى المراحيض، وقع أحد المعتقلين من زنزانة أخرى في المرحاض وفقد وعيه، فأمرنا المسخ السَّجان أن نقف ووجوهنا للحائط كالمعتاد، لم يكن الممر الذي نقف فيه أعرض

من مترين وطوله ليس أكثر من خمسين ذراعاً تتوزع عليه أبواب الزنازين، في آخر ذاك الممر تقع المراحيض.

هناك طعنني صوت طفلة، ظننت في بادئ الأمر أنه يخيل إليّ ، لكن صوت الطفلة تحول لبكاء ونشيج، حركتُ رأسي ببطء شديد نحو مصدر الصوت وصُعقتُ من هول المنظر، كانت هناك عائلة بأكملها تقف عند باب المراحيض، يتعثر الضمير ببعضه ها هنا ويسقط مفتتاً.

الأب عارٍ تماماً، والأم بثيابها الداخلية، وثلاثة أطفال قدَّرتُ أعمارهم ما بين العاشرة والثَّالثة. التصق الأطفال بأمهم وبين أرجل أبيهم خوفاً من أصوات التَّعذيب، وكلما مر مسخ منهم صفع الأب وبصق على الأم، والطفلة كانت تنظر إلى وجه أبيها ثم تدس وجهها ببطن أمها وتقول: أمي ، لماذا كلهم يضربون أبي؟

حاولَت أن تخفي اختناقها بعبراتها، شهقَت عدة مرات، جاءت بشحوب الكون كله ونظرَت إلى أبيها ثم استسلمت للبكاء الذي كان أعمق من كل أحلامي، صوت بكائها طغى على كل شيء هناك، وكأن كل ذرة موجودة كانت تستمع بصمت لنحيب حزنها البريء، وراحت زفراتها المرتجفة تبصق الوجود كله، وتمحو كل ما عرفته البشرية من لغات، الأطفال كانت تتغير ملامحهم كلما عَلَتْ صرخات المُعذبين، وعندما يستحيل الصُّراخ إلى جئير يعودون للبكاء مع من يتألم في زنازين الموت تيك.

والأم ضمت أطفالها بيد ووضعت الأخرى على صدرها لتستر ثدييها كانت دموعها تنهمر دون أن تغير ملامح وجهها، لتتضاءل مساحات النشأة الأولى، وظلال أجسادهم كانت أطهر من كل دعوات الدنيا.

عاد السَّجان وصرخ علينا لندخل للمراحيض، ومن يتأخر لن يعود للزنزانة سيتحول لجثة سنراها غداً صباحاً في ذات المكان، عدونا لزنزانتنا ونحن نهتف بالروح بالدم سنفدي سفاح الوطن، والحزن قد وصل آنذاك لقعر أعماق قلبي.

بعد أن عُدنا صبَّ لي أحدهم بعض الماء بغطاء القارورة الوحيدة، تناولت الغطاء وشربت ما فيه وأنا أشعر بقطرات الماء كيف تعدو في جوفي كأنها غيوم تمطر، تلك القارورة التي لا تتسع لأكثر من لتر ونصف هي حصتنا من الماء طيلة اليوم، لخمسة وخمسين مُعتقلاً، الظلام الحالك كان يسمح لكثير منا أن يتخيل ملامح من يخاطبهُ كما يشاء، فيتسلل الجمال خلسةً إلى هناك لترسُم فيه وجه من تريد كما تشاء فتبدو عزلتك داخل ذاتك أقل طعناً، الممر الطويل يضاء عبر مصباح ضوء صغير وذاك الضوء الضعيف هو مصدر النور لزنزانتنا المؤقتة ولكل الزنازين الأخرى، حين كانوا يأتون ليلاً ليغتالوا بعض المعتقلين يشعلون الأضواء ثم عندما يأخذون من يريدونهم يعود الظلام بعدهم كما كان، الضوء الوحيد الذي يأتي معهم هو الضوء المُشرب بالموت.

الأيام الأولى للاعتقال هي الأكثر غولاً، كثيرون يموتون في الأيام الأولى،

هول الاعتقال وصدمة الاقتراب من الموت والتَّعري الكامل وأصوات التَّعذيب، يدفعان المعتقل الجديد لنكران عالمه الجديد، فيتدرج برفضه لما هو فيه، فيهمس في داخله آلاف المرات أنها مجرد أيام وسيخرج من هذا الجحيم الذي تنحصر كل بواباته بالموت وحده، يتذكر ذاته قبل أن يكون هنا يحاول أن يلامس الشَّبه الذي كانه بالأمس، يرى نفسه من وراء البلور، يريد أن يعود بالزَّمن للوراء لعله يصدق أن صحوته بيننا هي كابوسٌ كريهٌ سيمضي، إلى أن يتحول للتفكير بأهله وماذا سيفعلون لأجله وكيف سيخرجونه من هناك، ثم يدخل في دائرةِ محاولاته لاستيعاب الواقع الذي هو فيه، إلى أن يبدأ الجوع والعطش والجروح بعزله عن كل شيء، فتتحول كل اهتماماته إلى مواعيد الطَّعام ورشفة الماء، ليصل أخيراً إلى حَصرِ كل اهتمامه بألا يقارب الألم الشَّديد، إلى أن ينتهي لما كنَّا فيه، فبعد شهور هناك يفقد الموت هيبته لكن المرعب هو طبيعةُ ذاك الموت.

تلك الكيفية تصبح هي المدار الأول للتفكير، وهنا ينقلب على نفسه فيعود كل همه أن يموت دون أن يدخل في أنفاق الألم الذي ليس له مثيلٌ على وجهِ الأرض، ويتوه داخل ذاك كله عن ذاته، والصواب أننا حين نتوه نتعلم أشياء جديده ونحن عائدون.

المعتقلون الجدد غالباً ما يبقون صامتين، سكونهم يجعلهم أقرب لنكران أن خصوصيتهم انتهت هنا، فيلوذون بالصمت ليكون عزاءهم وتمسي مساحات غُرفُ نومهم وبيوتهم ومنازلهم وأملاكهم كلها هي نصفُ البلاطةِ التي ينامون ويجلسون ويقفون عليها، أيامٌ قليلةٌ ويخنقهم

السُّكوت، والحنين للشعور أنهم أحياء فيعودون بحاجة ماسة كي يتحدثوا مع الآخرين، وكم شاهدت معتقلين دخلوا كأنهم تماثيل محنطة وبقوا على ذاك الحال أياماً ، لكنهم بعد أسبوع واحد كانوا يحتاجون لتوسلاتنا جميعاً كي يصمتوا قليلاً.

المعتقل الذي عاد من التَّحقيق اليوم كان يروي للسجان كيف أنهم اعتقلوه من بين أطفاله الذين توفيت أمهم وليس لهم أحدٌ سواه، تركهم في زحام الشَّارع وغاب بين أنياب الظلم التي سحلته حتى وجد ذاته فجأةً بيننا، ويكرر أن أطفاله صرخوا عليه يا أبي لا تتركنا وهو يبكي وينوح ويضحك في آنٍ معاً ويرجو الله أن يرى أطفاله مرةً أخيرة، لقد ترك عقله وراح يمشي على جسور العتمة، بهدوءٍ شديد أمسكه السَّجان وكبَّل له يديه للخلف كحين يصفق بهما، ثم جعل ظهره للباب وأدخل كل أصابعه حتى الرسغ بين الباب الحديدي وإطاره، ونادى على مسخ آخر منهم وقال له أمسك يديه لا تدعه يتحرك. ثم صرخ بكل صوته: ربك الذي ترجوه معتقلٌ في زنزانة أخرى.

وصكَّ الباب بكل قوتهِ على إطاره الحديدي فانهرست أصابعُ المعتقل بين الإطار والباب وأخذ يصرخُ وينتحب ويهلوس ويصدر أصواتاً لا تنتمي للبشر، كانت أقرب للجئير الممزوج بالعويل.

حين استدرنا كانت أصابعهُ ماتزال في زنزانتا بينما هو معلق خارج الباب والدم رسم خطاً واحداً مشى من كفيه وراح يصب بأرض الزنزانة التي

كانت تفوح منها رائحة القيح والصديد، الآن جفَّت بقعة الأمل في داخله، وفي كل مرة كانوا يفتحون زنزانتنا يعيدون يديه بين الباب وإطاره لتطحن مرةً أخرى عظام يديه مع لحمٍ جديد، حين رموه بيننا كانت ثلاثة أصابع من يديه قد سقطت في زنزانتنا قبل أن يُدخلوه، رائحة برازه وبوله أقل فداحةً من منظره الفظيع حد الهلع، لم تكن عينهُ اليمين موجودةً، وفمه مهشم وأنفه مقسوم إلى قسمين، تركه السَّجان مكبلاً للخلف.

بعد ساعاتٍ قليلة كان قد خرج فعلاً من زنزانتنا جثة هامدة، ذهبت روحه إلى أطفاله الذين كانوا ينتظرونه في اللامكان، لقد عبرَ للتو مدن الضياء ولن يعود.

أصوات التَّعذيب ليست أسوء ما نسمعه هناك، فهدأة الليل تخبأ المُفجع أكثر، حيث تغدو صرخات النساء المُعلقات وهن عارياتٍ أوطاناً فقدت أسماءها وتاريخها ونحن أحجار نسكن الأرصفةَ الموحشة، نلوذ بالدروب الهاربة منا، ولم يكن ذاك كل شيء، فصوت بكاء الأطفال الرُّضَّع في تيك الزنازين المُظلمة، والأمهات اللواتي يتوسلن لعلَّهن يَحصلن على بقية غطاءٍ يقي أولادهن أنياب البرد، يحيل الموت إلى دثار دافئ كم كنا نتمناه، ليزرعونا في مقابر مهاجرة فتنمو رفاتنا من جديد هتافاتٍ تعدو نحو الوطن.

سكون الليل كان يُوقظ المواجع التي تغفو نهاراً، ومنذ يومين لم يُدخلوا أي طعامٍ لهؤلاء الراحلين وهم يحملون أكواناً من الألم وتاريخاً من الجوع، الطفل الذي كان ينظر إليّ وهو يرتجف ثم يثني شفتيه كأنه على

وشكِ البكاء الذي لم يتوقف عنهُ إلا دقائق قليلة، كان ظهره محروقاً بالكثير من سجائر الوحوش، يُطالعُ جسده كأنه لا يعرفُ ذاته، وقفَ فجأةً ومشى نحوي رجعت باتجاه الحائط أكثر والشيخ الذي بقربي ثنى قدماه فجلس بيننا نظر إليّ وإلى الشيخ، ثم جمعَ أصابع يديه ووخزني بها يريد أن يقول شيئاً ظننته جائعاً، همستُ له: والله ما عندي خبزٌ ولا ماء وأنا مثلك أكاد أموت من العطش والجوع.

هزَّ رأسه قليلاً، مسحَ عينيه ثم قال بصوتِ بدا كأنه بوح الصلواتْ: "أريدُ أمي"، وراح يبكي، تصورت أن يطلبَ أي شيءٍ إلا أمَّه في هذه الزنزانة المتروكة للموت والأنين، وضعتُ يدي على رأسه فأخذ يشهق، ضممته إليَّ وأخذتُ والشَّيخ الذي كان بقربي نبكي معه، غفونا والطفل نائمٌ على قدميَّ والحزن كان يشاهدُ كل شيء ثم يحمل متاعه ويرحل.

مضتْ ساعاتٌ قليلة حين بدأت تعلو أصوات أقدامهم وصراخهم ومع ادخالهم المفتاح في قفل الباب كنا قد وقفنا جميعاً واستدرنا نحو الحائط، لست أدري أين غاب الطفلُ عني في زحمةِ الوقوف، نادى المساعد المسخ على خمسة معتقلين كنتُ أحدهم، كبّلوا أيدينا للخلف، عصبوا عيوننا، ثم علت الشتائم والصفعات وراح الكبل يتناول وجبة الليل من لحومنا ونحن نستجير ونسقطَ لننهض تحت ألم الكِبال التي لا ترتوي أبداً، كانوا يمسكوننا من رؤوسنا وكلما أرادوا تغيير الاتجاه يضربون رؤوسنا بالجدران، بدأت أصوات التَّعذيب تبدو أقرب وأعلى والعويل ينز من كل شيء، مع كل خطوة كنا نتمنى الموت قبل أن نصل إليه، إنه شعور عصيٌ

الوكنات ذاك الذي كان ينتابنا هناك، فدواخلنا كانت ترى بالموت بوابة الخلاص والنجاة من هذا الجحيم الذي نحن فيه، لكنّا عندما نقترب من الهلاكِ بشدة نعود لنهرب منه، تفرُ خطواتنا مما كانت تركض نحوه، عرفتُ من أصوات التّعذيب التي كنا نسمعها كأننا فيها أننا وصلنا، هناك صوت امرأة تتوسل، ولزوجة الدماء التي أشعر بها على قدميَّ زادت ارتجاف شفاهنا ودهشة الذهول أمام نفق النهاية وهذي عورة الأزل انكشفت أخيراً.

ضربني المساعد عدة مرات على وجهي قبل أن يمزق الكبل بقية سروالي ويرميني أرضاً، كبّلوا قدماي بسلاسل الحديد، ثم أدخلوا بينهما سلسلة معلقة بالسّقف، شدوا الجنازير فأمسيتُ بغتةً معلقاً في الهواء، قدماي للأعلى ورأسي بالكاد يلامس الأرض، راح قلبي يتخلى عني وبدأ الدم يبحث عن نزفٍ جديد وجاءني الألم معانقاً وأنا أبحث عن أي مسافةٍ تفصلني عنه، والعصبة السّوداء كانت تزيد من متاهات أزقة الألم الضرير.

وقبل أن يبدأ أي شيء، ساد صمتٌ حَسبتهُ قروناً، وأنا أشعر أن رأسي سينفجر بعد قليل، رباه أين موتك الذي أتمنى، أخذَ المُحقق يقرأ أوراقي بصوتٍ مرتفع حتى وصل إلى عبارةٍ كررها ثلاث مرات ثم صاح بهم: إن كان هناك أحد على وجه الأرض يجب أن تُحرقوا جلده فهو هذا المُعلق أمامكم.

مزّق الكبل الأول لحم صدري وقضيب الحديد هوى على فمي فقطع أنفاسي، ركلني أحدهم فأمسيت أتأرجح بينهم وعلا الوعيد بأن عظامي ستخرج قبلي وكلما وصلت إلى أحدهم ساطني بكل ما لديه من غلٍّ حتى بثُّ

أهرب من الألم إلى الألم، جاء أحدهم ووضع حذاءه على حلقي فثبتني إلى الأرض واقترب الاثنان وراحوا يضربون ذات الأماكن بدأوا برقبتي من الأمام والخلف ثم صدري وظهري في آنٍ معاً، وأنا أموت وأعود للحياة تقيأت وامتلئ فمي لكنه حين خرج خنقني لأنه دخل بأنفي مرةً أخرى، واجتمع الألم كله في أسفل معدتي حين كانوا يضربوني بذات المكان تناوباً حتى شعرت أني انفصلت عن جلدي ورُحتُ أصرخ وأتوسل وأبكي وأتبول وكل ما يخرج مني يعود إليَّ لأني معلقٌ في الهواء، جاء ثالث منهم يحمل عصىً غليظة ليُوقظَ الألمِ السَّحيق في الأماكن التي كانوا للتو يتركونها والوجع بات كأنَّ أحدهم ينشر لحمي بمنشار والدم سال من كل جسدي حتى غطى ملامحي، أتراكَ خجلت من بعضك يا وجودي فارتديت الدم كي تهرب فيه، خيال النداءات العتيقة يقتلع عيونه أمامي، يا لتني أفقد وعيي يا ليتني كنت شيئاً لا يعرف ما الوطن.

دفقات الألم تستبدُّ بجسدي لتمخر كل ذرة فيه وأنا أصرخ من كلِّ خليةٍ مني ألوذ ببعضي لعل الألم يرحمني أجار حتى تنزف حُنجُرتي ثم أصمتُ كجدار، الألم راح ينبري حتى وصل قاع قلبي وأنا أَختنقُ بالدمع وألوحُ في الهواء وهم يصبُّون على كلٍ جزءٍ مني جاهلية قبحهم العتيق، متى سينتهون رباه لم أعد أحتمل ها أنا أموت إني أموت رويداً رويداً لم أعد أشعر بجسدي أتراهم قطعوا رأسي، من ذا الذي يصب في أمعائي حميم الحريق، ألم تُنهكَ أيديهم، كل هذا لن يجدي نفعاً يا جسدي أنت والألم وحيدان، أشعر كأنَّ أحدهم يسلخُ جلدي بيديه توقفتُ عن البُكاء أهكذا

يشعر الأموات، إلهي لو أننا نعي ما تختزن أجسادنا من ألم لقتلنا أنفسنا جميعاً، ضربوني عدة مرات على وجهي فتغيرت ملامحي ثم دخلت ممالك الظلام فقدت وعيي وهربتُ من بين سياطهم أخيراً.

أوجعني أكثر يا سجاني، اقتل آخر معاقلك في روحي، كم ستصرخ حين ستعلم أني لست عدوك يا ابن وطني.

سحلوا ما تبقى مني وألقوا بي أمام الحمامات، مضت ساعاتٍ وساعاتٍ وأنا مَرميٌ هناك، في عصر اليوم التَّالي بدأت أصحو على طَعَنات الألم، السُّلم المؤدي للطابق السَّفلي كان يخُبئ بين عتماته سَكرات الموت الممزوجة بالبكاء والصُّراخ ، فبين ظلامِ هذا القبو المُعتم يتساقط المعتلقون المَحقُونون بإبر الهواء في أسفل رؤوسهم، منهم من يستشهد حالاً ومنهم من يبقى ساعاتٍ وأيامٍ يصارع الموت حتى يختفي صوته بين الصرخات الجديدة، الجثث المتراكمة هناك يخرجها المعتقلون الذين سيلقونَ ذات المصير.

أراقَ عليَّ أحدهم قِدرَ ماءٍ قذر وأزاح عن عيني العُصبة السَّوداء، ركلني بقدمه وأمرني بالنهوض، الدمُ المَسفوح كان يملأ كل جَنَبات الممر، آتى مسخٌ آخر معهُ أمسكوا بقدميَّ وراحا يجراني إلى زنزانة بدت كأنها كهفٌ كئيب، حين بدأنا ندخل إلى هناك شُلَّ فمي، لقد كان المشهد مهولاً، عشرات النساء والرجال مُعلقين فيها معاً، البعض يصرخ وكثيرون فاقدون لوعيهم، وآخرون استحالوا جثثاً هامدة.

النساء اللواتي كنَّ ينزفنَّ من أيديهن المعلقة بالسَّقوف كان الدم يرسم دروباً حُمراً على أجسادهن شبه العاريه، والصرخات اللواتي يُطلقنها كانت تجعل البقية يشتدون بالبكاء، رائحة الموتى أقل شناعةً من فوح أَسَنِ الدماء المتجذرة في الزوايا، الكثيرون كانت تربطهم صلات قُربى، وهناك في الزاوية الأخيرة يتأرجحُ شاب وهو يُحتضر ويتقيأ قطعاً من الدم ويشهق كأنَّ أحداً يخنقه والمرأة المعلقة بقربه راحت تبكي وتصرخ بأعلى صوتها وتتحدث معه لعله يلتفتُ إليها.

جاءت شتائمهم لتعلو أصوات العويل والبكاء، وقف أحدهم وصفع المرأة التي كانت تصرخ، نظر إلى الشاب المُحتَضر وقال يجب أن نُودعك يا صديقي، فَكوا أغلال الشاب فسقطَ على الارض كأنه قطعةٌ منها، ثم علقوهُ مع المرأة التي كانت تبكي عليه بذات الحَلَقَة، جعلوا ظهر المرأةِ على ظهر الشاب قيدوهما معاً فأمسيا كجسدٍ واحد راحوا يضحكون والخطيئة تمسحُ دموعها وهي تشاهد كل شيء، تقدم أحدهم ومزق ثياب المرآة فأصبحت عاريةً حتى من الوطن، وجاء أحدهم بالكبال والقضبان ووجوه العذاب، وبدأ المشهد الذي كم تمنيتُ لو أنه حلمٌ اختزنَته سفوحُ الخيال ولم أره بعينيَّ، الكبل الأول وقع على صدر المرأة العارية من كل شيء، فصرخت حتى صَحَتْ السَّنوات وراحت تبكي معنا، وأخذوا يضربون الشَّاب على رأسه والدم يعدو منه كأنه سيل عارم، كانوا يديرونهم في الهواء إلى أقصى ما يمكن، ثم يتركونهم ليلتفوا في الهواء حول أنفسهم وهم يشوون جلودهم بالكبال والقضبان ولم يتركوا صفةَ عهرٍ في التَّاريخ لم ينعتوا بها

تيك السُّورية الأبيَّة التي طهَّرت دماؤها آثام الصَّامتين، أكثر من نصف ساعة وهم يَصبُّون عليهما حُميًّا العذاب الذي لا تطيقه الأحجار، المرأة نزفت نصف دمها والشَّاب فارق الحياة منذ الدقائق الأولى وساد السُّكون الذي يعقب الموت واختلط الأنينْ الخافت بذرات الهواء، لقد كنا نشهق أرواح بعضنا هناك.

قبل منتصف الليل كانت جثة الشَّاب والسَّيدة المُعلقة معه مرميتان عند الباب، وهناك خارج الجحيم الذي كنا فيه وفي ذاك الممر الذي بالكاد أراه لمحت الطفلَ الذي غفى على قدميَّ في زنزانة الانتظار، كان عارياً يرتجفُ وهو يمسك بيده أدوات التَّنظيف يمسحُ بها الأرض، المساعد القاتل كان يقف خلفه وبين الحين والآخر يركله فيسقطهُ أرضاً، يرفع الطفل يده فوق رأسه وهو يتوسَّله ألا يضربه بالكبل، وقفَ ثانية وراح يمسحُ الأرضَ وأنا لست أدري ما الذي أصابني، شعرت أن الكون فادحُ الفاحشة بسكوته عن هذا، فصرخت بأعلى صوتي، التفت الطفل نحوي، رغم تورم وجهي الشَّديد عرفني فأسقط الممسحة من يده وراح يبكي، رباه لقد شعر الطفل بوجعي عليه، لقد عرفَ أني صرخت من عمق تألمي أن هناك جيلاً بأكمله يريدون دفنه هناك، كان بكل ما فيه يستنجد بي، يستنجد بهتافاتنا، يستنجد ببقية الوطن التي نحملها بين نظرات الوداع الأخيرة، كان يلوذ بنا ممن كانوا يغتصبونه ويطفؤون السَّجائر بظهره المحروق، مولاي هذا وطنٌ صغير يموت.

المساعد المسخ لم يفهم شيئاَ، ظنَّ أني أريد شيئاً تقدم نحوي وهو

يحمل الكبل وأنا مهترئ الجلد، رحتُ أنتفض وأنا أتألم حتى من نسمات الهواء، ركلني بقدمه ثم رفع كبله وهوى به على رأسي وهو يصرخ اصمت إلى الأبد، كررها مرتين وأنا أنظر للطفل كيف كان يرتجف ويبكي، ثم لم أعد أشعر بشيء، في مساء اليوم التّالي رموني في زنزانتنا التي كنت فيها قبل التّحقيق، والمُعلقين هناك مازالوا ينتظرون بعض الضوء كي يعرفوا به وجوههم من جديد، إنه ميراث الاستيلاء على الحياة بطغيان الألم ، والأكثر من ذلك إنهم يصلون بين نوع الموت وعمق الوجع وبين مدى الجرأة على السُّلطة التي ترى في هذا جريمةً لا يقابلها سوى الفناء الأبدي لنا. فالصَّرخة تنمُّ عن رفضٍ دون ملامح وهذا كان كافياً ليوقظ الغيلان المبتورة الأطراف في دواخلهم.

كان أكثر ما آلمني هي تلك الجملةُ التي سمعت فيها ضابطاً كبيراً هناك يعرِّف المواطن للسجانين فأخذ يقول:

"المواطن قبل كل شيء تعرفه من بعيد، فسماته يجب أن تدل على طاعته وخضوعه، بمجرد أن يقول: لا، تسقط عنه كل حقوق المواطنة، المواطن الذي يتحدث إليك وعيونه تحدق بك يجب أن يُضرب على أنفه حتى يتأدب ويدمن متعةَ النظر إلى التُّراب، من الخطير جداً أن ترى مواطناً ينظر إلى السّماء، إن هذا يعني أنه بدأ يتوقع حدوث أشياء لم يجربها مسبقاً. المواطن مطواع. غير ذلك فهو عدونا، إما أن يموت وإما أن يموت".

إن كانوا يستطيعون تزوير التَّاريخ فسنكتب للحقيقة، سنخط ما فعلوه بدمائنا لتدرك الأجيال الآتية أننا اخترنا درب حريتنا رغم أننا كنا نعرف أن الثَّمن هو صرخاتنا وعذاباتنا، حريتنا التي سننالها يوماً رغماً عنهم أو نموت ونحن نحاول.

حين صحوت في زنزانتنا كانت الجثث النائمة بيننا تستمع للصريخ الذي تنزه الأرض التي ارتدت حُللَ الدم المُراق على البقايا البشرية والأظافر التي هجرت أناملها ، والسُّعال المسافر نحو صمتٍ أخير، ليكون الكفنُ خيوط الدمع المنهمرة من الجدران التي كانت تشاهد كل شيء.

الصُّدوع التي كانت تغطي السُّقوف لا تتسع لنا جميعاً كي نختبئ فيها حين ينادون علينا، والنساء اللواتي يلدن في عتمات الزنازين يستنجدن بمن سبقهن إلى الموت، والأطفال الذين يشهقون أنفاسهم الأولى برائحة النزفِ والدم يجعلون الموت يبدو أقلّ فداحة من انتظار الآتي، والحواس المفقودة كانت تجعل أصحابها يحلُمونَ بها كل يوم، أما الذين اقتلِعتْ عيونهم فقد كانوا يصحون منتصف الليل ليسألونا لمَ كل هذي العتمةُ والظّلام.

في صدر الزنزانة كنا نضع الأضراء كي ينهضوا معنا حين يأتي الطغاة ليلتهموا بعضنا، وكثيراً ما كانوا يقفون ووجوههم نحو الباب بدل الحائط، لا يميزون الاتجاهات، ينادي عليهم المجرمون، يَسقطونَ عدة مراتٍ في طريقهم نحو الباب وهم يتلمّسون الهواء بأيديهم، يقفون أمام السَّجان،

يرفع كبله ويهوي به على وجوههم فيأتي صوت اللحم الذي يُمزقُ أعمق من صوت الصُّراخ، وهم يرفعون أيديهم بالاتجاه الخطأ كي يتقوا العذاب، والسَّجانون يضحكون، والموتُ يراقبُ المشهد من بعيد.

أمَّا أولئك المحروقين أثناء التَّحقيق فقد كانوا يضربون رؤوسهم بالجدران وهم يتمزقون من لهيب السَّعير، وكثيرٌ منهم كان ينفصل عن كل شيء فيدخل في نوبات من الهذيان الطويل، يبني عالمه الخاص في أحد الزوايا، ويبدأ بالحديث مع زوجته وأولاده، يصرخ بأعلى صوته على ابنته كي تغلق النافذة كي لا يشعر بالبرد، فيفتحون الباب ويسحلونه خارجاً يضربونه مكان حرقه، ليمزقوا اللحم الذي بالكاد التأم، ليعود وهو فاقد لعقله تماماً، في الممر يركض فجأة نحو أطفاله الغائبين ودربُه البكاء، يمسكونه يكبلون يديه، ثوانٍ قليلة يهشمون رأسه بقضبان الحديد، نعود دونه لتسكنَ جثته برد البلاط الذي ملَّ رائحة النزيف.

قرب باب الزنزانة كان ودود يفترش الأرض كي يكون الأقرب إليهم حين ينادون عليه، ودود كان هيكل العذاب الذي أضاع الحواف، عاد من التَّحقيق يوماً دون أظافر يديه بعد أن أفقده الألم صوته بينهم وأمسى أبكماً، كانوا بعد ذلك يضربونه في جلسات التَّحقيق على أصابعه المهروسة فتشوهت أماكن أظافره، بعد عدة أشهر نمَتْ أظافر جديدة لودود فوق زوائده اللحمية التي افترست أصابعه والحقيقة أنها كانت أقرب للمخالب من الأظافر، وببطء مشبع بحزن أشيب، كان كثيراً ما يرفعها يهزُّ رأسه ينظرُ إليَّ ثم يرتكب البكاء الذي أمسى بعض ملامح وجهه.

إلى يمين ودود يستند المُسنونَ على بعضهم، أولئك الثَّلة من الشيوخ الذين كانتَ لحاهم البيضاء تهزم العتمات وهم عائدون من التَّحقيق وهي تتقطر دماً، ترتجف شفاههم وتغيب اللغات عنهم، يجهشونَ بالبكاء حسرةً على آخر أيام العمر هنا، أجسادهم الهشة التي أتعبها تتابع السَّنوات كانت لا تحتمل التَّعذيب، بعضهم كان يذهب للتحقيق يبقى أسبوعاً بين الوحوش، حين يعود يكون الشللُ صاحبه الجديد، يبقى أياماً وساعات يطلب منّا أن نعينه على النهوض، لا يصدقُ أنه بات عاجزاً في رحمِ ذاك العذاب المقيم، وحين تتعبنا توسلاته وننهضُه يستقيم واقفاً وما إن نتركه حتى يتهاوى إلى الأرض وهو مندهش الوجود ، لا بد من البكاء أخيراً عماه لقد أتعبتنا الدموع، بعد أيام نمر بقرب جثته كأنها لم تكن هناك أبداً ، كانت الجثث تزداد وتزداد في الممر حتى بتنا نخطو فوقها.

ولن أنسى ما حييتُ وإلى الأبد فجرَ تيك الليلة السَّوداء حينَ فتحَ السَّجان الَممسوسَ الباب ونادى على أربعة منّا كنت الثَّالث بينهم، أخرجَنا وأغلق الباب.

أشار السَّجان المسخ إلى عشرات الجثث المُلقاة في الممر وقال: أريد قبل الصباح أن تكون كل هذه الجثث على يمين المدخل الرئيسي، ارصفوهم أربعةً أربعة.

ثم مشى خطوات قليلةٍ وفتح غرفة كادت رائحتها أن تُسقطنا جميعاً ابتعد بعدها مغادراً وهو يقول: وكل الجثث التي في هذه الغرفة أيضاً، إن

طلعت الشمس ولم تحملوها فستكونون جميعاً جثثاً جديدة.

تسارعت خطواته وهو يغلق الباب الرئيسي ويبتعد هارباً، أخذنا ننظر في عيون بعضنا كيف سنحمل كل هؤلاء الشهداء، ذهب اثنان منا إلى بداية الممر، بينما بقيت مع ودود لنخرج الجثث المكومة داخل هذي الغرفة المهجورة، حين اقتربت خطواتنا منها أوشكنا أن نختنق من رائحة الجثث، لكن المشهد داخل الغرفة كان يبعثُ حيرةً مبهمة، إني أحتاج لغابات من دموع لأزهقها عند أقدام هؤلاء، والقدر الذي يلبس الضباب وقف خلفي يبكي هو الآخر.

عشرات الجثث المكومةٍ فوق بعضها، منها ما هو دون أطراف وكثيرون دون عيونٍ وأفواه ومنها ما هو مبتور الأصابع ، وآخرون دون أظافر وقد تساقطت جلودهم حتى ظننت أننا حين نحملهم سيتفتتون بين أيدينا، والبعض كان ممزق الصدر والأمعاء ومقلوع الأثداء، وثلة منهم كانوا محروقين حروقاً بالغة أنتجت حفراً في أجسادهم وغيّبت ملامحهم تماماً، جلست بقرب ودود نبكي وننتحب عليهم ونحن ننظر إلى هذا الصرحِ من الشهداء المجهولين .

نهضنا نخشى تسارعَ الوقت فالصبح قريب، وبدأنا نُخرج الجثث ونتقيأ كلما رفعنا واحدة من فوق أخرى، الدود كان يسكن محاجر عيونهم، والعفن غطى ملامحهم حتى تشابهوا فأمسوا جميعاً يحملون وجه الوطن المسجى بينهم، أخرجنا ثلاثة وعشرون جثة من تيك الغرفة التي بقي فيها

بعضي حتى هذه اللحظة، البوابة التي رصفنا عندها الجثث كانت تحوي فتحات كبيرة للهواء، ومن خلال تيك الثّقوب رأيتُ النجومَ البعيدة ، ورحت أطالع أعالي الكون وأنظر إلى جثث رفاقنا، أريد أن يرى كل أهل الأرض هؤلاء الخالدين دون أسماء، بعد أن انتهينا جلسنا حول تيك الجثث وقد تكدست حتى ارتفعت كبيدر ضوءٍ متروك للنسيان، بكينا عليهم طويلاً، الطُهر المنبعث من أجسادهم كان يجعل الصمت أليف الصدى رغم أننا كنا ما نزال نسمع صرخاتهم الأخيرة قبل الرحيل الطويل.

أحصينا عدد الجثث كانوا سبعةً وأربعين شهيداً، نصفهم دون ملامح تُميزهم والبقية وهبوا وجوههم للهتافات التي كانت ترنو نحو الآتي القريب.

قبل الصباح دخل السَّجان ومعه ثلاثة أخرين وراحوا يضربونا بالكبال والقضبان دون أن ينطقوا بأي شيء، فتحوا باب الزنزانة ونحن نتساقط وننهض حتى دخلنا زنزانتنا ليس كما خرجنا منها، لقد دفنا في أرواحنا سبعة وأربعون شهيداً جديداً والحزن بدا أبعد من عويل الأحجار الباردة ليستبد بنا الفناء وتسدل ستائر الذهول علينا فنحن جثثٌ مازالت على قيد الحياة.

في كل مساءٍ كانوا يطلبون ودود ليقوم بأعمال السّخرة، يجب أن يخرج إليهم عارياً، يخلعُ ثيابه ثم يخطو نحوهم وهو يغطي رأسه بيديه، يبدؤون بإحراقه بالكبال فيطلق تيك الأصوات التي يخرجها الخرسان فيضحكهم بكاءه العميق وخوفه الذي يجعل ارتجاف جسده النحيل يزيد من دناءتهم

ليمُتعهم تمزيق بعضه كل يوم، عظام قفصه الصدري تبدو للناظر إليها كأنها تطل من تحت جلده لتبحثَ عن شيء، وفي أسفل معدتهِ لديه جرح ينز صديداً كل الوقت، ظهره مملوء بتقرحات كانت في كثيرٍ من الأحيان تلتصق بالأرض وهو نائم، وعندما ينهض تنكشط فترتجف شفاهه كطفلٍ صغير من شدة الألم ليضع يده عليها ويشهق بدفقات البكاء، في كثير من الأحيان كان يعود ومعه بعض بقايا طعام خبأها بين الثّياب التي يعطونه إياها، وكم من مرةٍ كنا نجتمع كلنا لنطالعَ بقيةِ تفاحةٍ حملها إلينا ودود ننظر فيها كأننا نراها لأول مرة، ثم يقسمها بيننا قطعاً بالكاد تُرى بالعين المجردة.

تتوالى الأيام وهم يكدِّسون مزيداً من المعتقلين في الزنازين المختنقة بمن فيها لتغص زنزانتنا الصغيرة بعشرات منّا فنبقى أياماً ننام وقوفاً والبعض كان يموت ويبقى منتصباً من شدة الالتصاق البغيض، والمعتقلون الذين يحيطون به يبكون طويلاً لقسوة القدر، والموتِ كان نبيلاً لأنه كان يخطف أرواح أولئك السُّوريين وقوفاً لأجل الوطن، تزداد الجثث حتى يصبح الأموات أكثر عدداً من الأحياء وتبدأ رائحتهم بجلب مزيدٍ من الموت.

من يطرق الباب يجبُ أن يموت ولأجل ذاك كان أحد الأُباة يتشاهد عدة مرات ثم يودعنا ويوصي أحدهم أن يحمل حنينهُ الأخير لأطفاله إن خرج من هناك لعله يخبرهم أنهم آخر شيءٍ فكر فيه، يرتجفُ قليلاً يرفع يدهُ مسلّماً علينا، تطوفُ عيناه بنا فتأخذ معها كل ما كنا نتمناه قبل قليل، ثم يطرق الباب، يأتي السَّجان وهو يحمل كبلَ الفناء، يَجرُّ من طرق الباب خارج الزنزانة ، يضربه على رأسه بكبل الدَّبابة حتى يغرق بدمه، يدقُّ رأسه

بالجدران حتى الموت، يعيده لنا وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة التي قدمها فداءً لنا، وحينها فقط يسمح لنا السَّجان أن نخرج الجثث التي باتت أكثر منَّا، وهكذا جرت العادة بيننا وبينهم، كالأساطير القديمة أحدنا يجب أن يكون قرباناً كي نُخرج جثث رفاقنا الموتى، يريدون أن نفنى، أن نرحل دون أن يرانا أحد، أن نموت جميعاً ليبقوا هم، فإما أن تكون عبداً وإما أن تكون ميتاً، هذا كل ما قالوه لنا خلال سنوات طويلة من الطغيان، وهذه كل الكلمات التي همست بها الجثث التي كانت تملئ كل شيء هناك.

وفي كثير من الأحيان كان ودود يُضحي بجلده لأجلنا، يتقدم نحو الباب يبتسمُ كعادته في وجوهنا ثم يبكي قليلاً فنبكي معه، يمسحُ عينيه وترتعش أطرافه، ينظر نحونا ونحن نختنق بالموتى يهزُّ رأسه، يمسح عينيه مرةً أخرى ينظر إلى مخالب يديه فتغيب ملامح وجهه يسعلُ طويلاً ثم يطرق الباب، ورغم أنهم لم يكونوا ليقتلوه لأنهم يستعملونه في السُّخرة ، إلا أنهم كانوا يذيقونهُ ألوانا من الألم تعجز حتى أشباح الجن عن تصورها، لينقذ بعذاباته مرةً أخرى معتقلاً جديداً من الموت، وفي أحد مساءات الضّلال أمسكه المساعد الدنيء من حُلمَةِ ثديهِ بكماشة الحديد، وضغط عليها حتى انقطعت، وشق ودود عنان السَّموات بصوت آلامه واستغاثته وبكائه، وهم يضحكون على الأصوات التي يصدرها، وودود كان يبتسم دوماً بعد أن يقذفوه مُدمى الأطراف داخل زنزانتنا، وحين يتوحشُ الألم على معتقلٍ عاد من التَّحقيق وقد اقتلعوا له كل أظافره، كان ودود يقفُ ويطرق الباب يخرج إليهم ليشووا جلده بالكبال وهو يُشير لهم أنه مريض ويحتاج

حبةَ دواء، يعود إلينا وهو مسلوخ اللحم وباسم الوجه فرحاً بحبة الدواء التي أعطوه إياها لنعطيها للمعتقل الذي غالباً ما كان يموت في ذات الليلة، ودود كان يُحرق جسده ليعين غيره على وجعه، يجلس بعدها مبتسماً ثم يدس وجهه في الزاوية ويغرق في أمواج البكاء، ليستحيل عراء أرواحنا ضفافاً تنمو على جنباتها نظراتنا اليابسة.

كنا نحبُ ودود لأنه كان صلتنا بالحياة التي لم نعد نذكرُ رائحتها وطبيعتها وعاداتها، نحبه لأنه كان يهبنا بعذابه بعض الأمل بأن نبقى أحياء وأن هناك في هذا الوجود ينتظرنا الكثيرون ممن نسينا صورهم لكننا بقينا نحبهم دون ملامح، الموت الذي لا يتوقف في زنزانتنا يمنعنا أن ننشأ بيننا علاقات طبيعية لقد كنَّا في مراسم تشييع لا تنتهي، كأننا من سكان القبور، الأفواه المشتعلةُ عطشاً، والأجساد التي نحتها الجوع تدفعنا كي نودع بعضنا بعضاً كل مساء ونحن نصطف على رصيف الموت الطويل، ونمسك بأيدي العائدين من التَّحقيق كي يموتوا ليلاً وهم يشعرون بأننا بقربهم. لقد كنا في تلك الزنازين المغلقة التي تنز كآبةً تكفي الكون، هياكل عظيمة تتحرك كأنها في قاع المحيط من شدة الوهن، وعيون جاحظة تنتظر الهلاك وتختفي كل يوم، لقد كنا مملوئين بالموت كل الوقتِ ومشغولين بأسباب البقاء.

كل ذرةٍ من زنزانتنا كانت تشبه شيئاً منَّا، فجدرانها التي نخرها الزمن وسقفها المسكون بأرواح أجيال طويلة من السُّوريين، كانت تشبه إلى حد بعيد أجساد أولئك المقعدين المنتظرين الموت القريب، وصمتها الطويل

ينسجم مع صمت ودود الذي ترك صوته في غرفة التَّحقيق بعد أن أخرسه الألم إلى الأبد، والعبارات الصغيرة المحفورة على جدرانها، تشبه كثيراً القروح والجراح التي كانت تغطي أجساد الجثث التي كانت بالأمس تحدثنا عن يوم الخلاص.

الزنزانة التي لن أنسى رائحتها وجدرانها وشكلها وثقوبها وعباراتها، وبقع الرطوبة البيضاء التي غطّت سقفها الرمادي المُعفر بخيوط النهايات الطويلة، والظلام الذي اعتادت عليه، كان جزءاً من العتمات التي خطفت أبصار أولئك الأضرَّاء الذين قدموا للوطن ضوء عيونهم لعل الآتين بعدهم يرون كل شيء بضوء الحرية.

مضت الأيام وأمست الجثث التي نراها ونحن ذاهبون للمراحيض تزداد وتزداد مرةً أخرى، حتى نضطر أحياناً للبول على جثث رفاقنا الذين كانوا بالأمس معنا، كان كل شيء هناك يدعو للبكاء، فكثير من الذين قضوا في تلك الزنازين الهاربة لم يعرفهم أحد، ولم يكتب أسماءهم أحد، ولم يبحث عنهم أحد. وكثيراً ما كنا نبكي هناك معاً، نبكي حتى استحالت الدموع هتافات الوطن.

كان الكثير من المعتقلين يحلُمون ليلاً بصوت عالٍ، فبعضهم كان يشتم كل شيء، وبعضهم كان يتحدث مع زوجته، وبعضهم كان يتوسل السَّجان ألا يضربه أكثر من ذلك، وبعضهم كان يعدُّ أسماء أولاده كلهم، ثم يصحو هَلِعاً ينظر في وجوهنا كأنه قد وصل للتو، يطلب شربة ماء تطفئ

لوعة قلبه، لا ماء لدينا لنُعطيه، يمسك رقبته ينظر في سقف زنزانتنا ينادي على الإله الواحد الذي يرى كل شيء يناجيه يبكي ينتحب بأحطاب شفتيه وهو يردد : آه يا أبي، آه يا أمي، ثم يعود لينام من جديد وعطشه مؤنسه الوحيد ولا يصحو بعدها، مات عشرات السُّوريين بيننا وكل أمنياتهم مقيدةٌ بشربة ماء لم نكن نملكها لهم.

إن كل أولئك المُعذبين الذين ذاقوا خلال أقدارهم حزناً عظيماً وألماً هائلاً كان سيختارون درباً آخر لو هُيئ لهم الخيار، أما أولئك السُّوريين الذين رحلوا هناك فقد كانوا من أعظم من مر على وجه هذه الأرض لأنهم حددوا مصيرهم دون احتمالات أخيرة، لقد كانت كل عذاباتهم وكل صرخاتهم بملء إرادتهم ومحض تضحيتهم، وما ذاك إلا لأجل الوطن.

هل كان حلماً ذاك الذي فعلناه هناك؟! لم هذه الرعشة المسافرة من صحوة الأجداث تئن في داخلي، عيون السَّنابل تتأمل رماد الفجيعة فتحيل ارتجاف أصابعي لرعدة تُبكي الأصفاد المهاجرةِ إلى هتافاتنا الثَّكلى.

البوحُ يَتشحُ بعماء الكتمان لأزفر ما جرى مبللاً بلهاث الكبت الحافي على ضفاف الدهر الخائف من السُّطور الآتية:

إننا نتمسك بالحياة ليس خوفاً من الموت بل رهبةً من الغياب، نفكر طويلاً كيف سَيُملئ الفراغ الذي سنترُكه خلفنا، وبعد أن تلاشت مواعيد الطَّعام، أخذت الفاجعة تتبدى مع العشرة رغفان التي راحوا يلقون بها كل مساءٍ ونحن عشرون معتقلاً، نصف رغيف كل يومٍ وليله، الذُّبول والوهن الذي أصاب أجسادنا أحالنا لخيالات أضاعت ظلها وهي لا تدركُ أن الآتي سيكون أشدَّ موتاً.

توالت الأيام والجوع أخذ يتناسلُ بيننا لينجبَ أجساداً كأنها هجعة الجثث الباحثةِ عن موتٍ مفقود، بعد أن أمسوا يلقون إلينا كل مساءٍ خمسة رغفانٍ فقط، ربعُ رغيفٍ لكل معتقل كلَّ يومٍ وليله، يريدون أن

تهزمنا دواخلنا لنموت دون صرخات، أن نعي احتضارنا كأننا اخترناه بأيدينا، شحوب الجوع يجعلنا نتساقط كلما ذهبنا إلى الحمامات، وما إن يتعثر معتقلٌ أرضاً حتى يجتمعوا حوله يتصارخون من يقتلهُ بضربة واحدة رغم أنه لو تُرك لأَجَله لن يعيش لليوم التَّالي.

كل يومٍ نحفلُ بشهداء يمضون دون رثاء، تحت وقعِ الموت بين أيديهم كنّا نحمل من يبقى منهم على قيد الحياة لزنزانتنا وهم يمطرون دماً يلونُ كل شيء، يعودون معنا للزنزانة المرتبكة بموتنا، يبكون قليلاً يذكرون أسماء أطفالهم، في منتصف الليل ينتفضون بشدة يخرج الزبد من أفواههم يرتعشون أكثر ثم يسكنون تماماً، نبكي عليهم ننوح عليهم بعيداً عن الوجدان قبل أن نُخرجَ جثثهم، نخلعُ عنهم كل ما يرتدونه، كان بعضُ المعتقلين تربطهم صِلاة قربى ببعضهم، وكثيراً ما كنَّا نرى معتقلاً ينعي أحد أفراد عائلته ودموعه تبلل كل جُثته، وفي غمرة ذلك يخلع عنه كل ثيابه ليعطيها لمعتقل دخل للتو عارياً، لنعود بعد أيام ونخلعها عنه بعد أن يموت ونعطيها لمعتقلٍ آخر حتى تصرخ السَّماء، كان لدينا قميص بني اللون ارتداه خمسة سوريين كلهم استشهدوا، حتى أن الأستاذ حكيم رفض أن نعطيه بعدها لأحد وأسماه قميص القبور.

كبار السِّنّ غائبون عن الوعي منذ أيام، والمُقعدون باتوا أمواتاً على قيد الحياة، وأخذوا يتركونا لموتنا الطويل، الأبواب لم تعد تُفتحُ إلا مرةً واحدةً كل مساء كي نخرج الموتى، ولن ينسى الزمان إلى الأبد كي بتنا كل مساء نجتمعُ كالأطفال ننصتُ بسكون لعلهم يفتحون الأبواب ليرموا إلينا أربعة

رغفان من الخبز فقط، ونحن أكثر من عشرين معتقلاً بيننا ثلاثة جثث قضمها الجوع.

ليلاً كانت الزنازين كلها تلوذ بوجيب البكاء وشهقات الاحتضار والأجساد المُلقاة على أطراف الزوايا تنتظرها المقابر المجهولة، في صدرِ زنزانتنا كان هناك شيخٌ طواه الجوع فأحاله هيكلاً عظيماً لا يقوى على النهوض بعد أن فقد عقله، ابنهُ معتقلٌ معنا في ذات الزنزانة، وفي كل مرةٍ يحاول الإبن أن يأكل نصيبه من الخبز الذي لا يتجاوز حجم إصبع اليد، كان والده يمد يده وهو يطلق آنات خافتةٍ ويشير لولدهِ كي يعطيهُ حصته من الخبز بعد أن يكون قد مضغ نصيبه من الطَّعام ، ولم ينسى أحدٌ منّا كيف أن الابن كان يمد يده المرتجفة من الجوع ويدسُ قطعة الخبز في فمِ والده ثم يعود ليبكي من ألم الجوع وهو يلعقُ أصابعه مرات ومرات وينظرُ إلى وجه أبيه، بعد أيامٍ حين توفي والده، كان كل مساءٍ ينتحب وهو يروي لنا كيف أنه كان يَنقمُ على والده لأنه كان يأكل قطعة الخبز تلك وأنه اليوم يتمنى لو أن والده يعود كي يمزق جسده ويعطيه، وكان ذاك يبكينا طويلاً.

وبين كل تيك المدنِ من الهلاك كان هناك ثلّةٌ من المعتقلين يعرفون كيف يسلكون سُبل البقاء، عرفوا الاعتقال قبل أن أولد بسنواتِ طويلة، الأستاذ حكيم كان أحد أولئك المسحوقين الذين أمسوا أحد ملامح السُّجون قضى حين كنتُ طفلاً عقداً من الزمن في لفائف العتمة، ولهذا كان يرشدنا نحو دروبٍ جديدة لم نكن لنراها دونه.

رصانة حديثه ونحوله الشديد وارتجاف يديه وشفتيه وحديثه الهادئ ، كان يجعل كل من ينظر إليه ينشغل عن نصف اللحية المجعدة التي كان تغطي الطرف الأيمن من وجهه فقط، بعد أن نتف له السَّجانون نصفها الأيسر وأطعموه إياها، ولطالما سحرني الأستاذ حكيم بقدرته على مقابلة كل النظريات بأفكار جديدة وبمذهبّه الفريد في تفنيد كل الحجج التي يدعونها وإظهار حقيقتها وحفر المفاهيم بحيث تبدو ثورتنا أعظم واجبٍ في سبيل الوطن، ومصيرنا الوحيد لنبقى أحرار ولا نُلحقَ بالعبيد.

أخذ الجوع يرتدي وجه الهلاك وأصبحت الأرغفة الثّلاثة التي يلقون بها إلينا كل أربعة وعشرين ساعة تبدو كالقبور الفارغة التي تنتظر ثلاثة منا ليسكنوا فيها، وأمست جنبات الممر ونحن ذاهبون للمراحيض تضجُّ بجثث العشرات من المعتقلين، حتى باتوا يرصفونهم ثلاثة ثلاثة فوق بعضها ويصنعون منهم خطاً طويلاً يمتد على طَرفي الممر الواصل من الموت إلى الموت، والعشرات يرحلون بعصر الجوع كأنهم أَلِفوا درب الرحيل الأخير في دواخلهم، الوجوه التي امتصها الجوع أصبحت أكثر عدداً من أصحابها، وكل شيء بات ميتاً وبارداً حتى حركاتنا وأصواتنا أمستْ تبدو أكثر قرباً من النهاية، يسألوننا كل يوم عن عدد الجثث وبحسب العدد المتبقي يرمون لنا رغفان الخبز، لكل خمسة معتقلين رغيفاً واحداً.

لم تعد بنا قوة كي نخرج شهداءنا، كنا نجتمع كلنا كي ندحرج جثةً واحدة داخل الغطاء الرقيق الذي كنا نلفها به لنعطيهم إياها، في يوم واحد توفي داخل زنزانتنا ثلاثة معتقلين من الجوع، لقد كان توحشهم وإجرامهم

غارقاً في الرذيلة حتى النخاع، متعطشون للتسلّطِ لا للمجد. أنتجهم الطُغاة كما ينتجُون الأشياء واختاروهم بعناية فائقة حتى يكونوا وجههم القبيح الذي يغتال الوطن.

صباح اليوم التَّالي بعد أن أخرجنا جثث رفاقنا جلسنا نقتسم ثلاثة رغفان من الخبز ونحن تسعة عشر معتقلاً أربعة منَّا أصبحوا على شفير الموت شَحُبت وجوههم وغارت عيونهم وعزفوا عن الطَّعام، وضعفت أجسادهم حتى أن الناظر إليهم يحسبهم أطفالاً نائمين متروكين على شرفات الآثام.

كل يومٍ يسألونا عن عدد الموتى وحين نخبرهم أن لدينا أربعة جثث يُنقصون من حصة زنزانتنا رغيفاً فيرمون لنا برغيفين فقط، وهذا كان يجعل حصّةَ المعتقل منّا ليست أكثر من حجم إصبعه كل أربعة وعشرين ساعة، والعائدون من التَّحقيق يموتون جملةً فالنزف يغافل الجوع ليملئ قوائمه بأسمائنا هو الآخر، وأمست زنزانتنا تغص بالموتى.

مساءً بعد أن شربنا قطرات الماء، أشار إلينا الأستاذ حكيم أن نلتفَّ حوله، ضمّ يديه ببعضهما ثم اجتمعت كل ملامحه في فمه وراح يقول كأنه يحدثنا من بئر: يجب أن نفعل شيء في وجه هذا الهلاك الذي نحن فيه ؟

لم يجب أحد منا بشيء فأكمل حديثه: عندما نخرج الجثث يخصمون حصة الموتى من كمية الخبز التي يعطوننا إياها، أليس كذلك ؟

أجاب من يستطيع الكلام نعم، بينما اكتفيت وآخرون بهزِّ رؤوسنا.

فقال: "لن نخبرهم إن عن عدد الجثث بعد اليوم، سنعطيهم كل يوم جثة واحدة وسنخبئ بقية الجثث هنا أمام هذا الحائط. حين يفتحون الباب سنحاول أن نقف كلنا باتجاه واحد، وهكذا ستختفي الجثث بيننا، وهم لن يشعروا بشيء، لأنهم لا يطيقون رائحتنا، وجهدُهم أن يغلقوا الباب بأسرع ما يمكن خوفاً من العدوى. سنقول أننا دوماً قرابة العشرين، وسنحصل على رغيفٍ آخر زيادةً عن الثَّلاثة رغفان التي باتت تقتلنا كل يوم. سنقسم الرغيف بين هؤلاء المساكين الذين يموتون من الجوع، غداً يجب أن يتكاتف اثنان منَّا ليخرجا جثةً واحدةً يوصلانها حتى الباب، يعود أحدهما ويقف منتصف الزنزانة بينما يجرها الآخر خارجاً، وهكذا لن يعرفوا أي شيء.

كان وقع جملته علينا كصاعقةٍ أحرقت ما تبقى منَّا، لكن أجسادنا شبه الميتة كانت عاجزة عن القيام بأي جهد، فتبدو ردةُ فعلنا باهتةً وباردة وكأننا لسنا هناك، حتى ودود بدا عاجزاً عن أي شيء، استسلم هو الآخر لنهايات الدرب المتصالح مع الموت، الموت الذي أمسى معتقلاً هو الآخر ويبحث عن خلاص.

في مساء اليوم التَّالي حين نادى السَّجان علينا كي نُخرج الموتى كنَّا قد ألصقنا الجثث بالجدار ووقفنا جميعاً خلفها ننظر إليها كأننا تائهون على رصيف القدر الأخير، صليل الخوف يُشعِرُنا أننا نحن من كنا نختفي بينها

وليست هي من تختبئ بيننا حتى أمسينا بعض ملامحها، تقاسمنا الأدوار كما اتفقنا حَمَلَ اثنان منّا الجثة حتى أوصلاها تحت الباب، أكمل أحدنا دفع الجثة خارج الزنزانة وعاد الأخر ليقف بيننا، في ذاك اليوم أعطيناهم جثةَ معتقلٍ لم يمكث معنا سوى يومين، وفي المساء رأيناها عاريةً أمام المراحيض.

بعد ثلاثة أيامٍ من اتفاقنا أصبحنا بحال أفضل قليلاً، وأمست الزيادة في كمية الخبز التي لم تكن بأية حال تتجاوز الرَّغيف تنقذ البعض من الموت جوعاً، وتسد رمق العائدين من التَّحقيق، الأسبوع الذي تلا ذلك كان يرمون إلينا بأربعة رغفان من الخبز، وباتت بعض الوجوه أفضل حالاً، وفي كل يوم حين ينادي علينا السَّجان كي نُخرج الجثث نعطيهم جثةً واحدةً فقط.

كان اتفاقنا ناجحاً، لكنه محى كل ما تبقى في داخلي ، أي بؤسٍ في التَّاريخ كهذا البؤس، لقد كنا نخفي جثث من كانوا بالأمس يحدثونا عن أحلام الهروب ودروب الشَّوق، نرتدي موتهم كي نحصلَ على بعض الخبز الذي ربما يُنقذ حياتنا، أي ظلمٍ في الكون كهذا الظلم.

غرقتُ في يأس جارف، كأني قد دخلت المُعتقل الليلة، وبدأت أصحو ليلاً وأبكي طويلاً طويلاً حتى تتعبني الدموع ثم أنام، الكثيرون كانوا يروني وهم يرتدون أكاليل الفزع الذي كان يبكيهم بدوره طويلاً، لقد عرفنا جميعاً أنهم لا يريدون منّا أي شيء سوى أن نموت، ليس هناك أمل، لذلك كان

الموت الذي يتخفى كل آنٍ بوجوهٍ جديد، مرةً وجه الجوع، وتارةً ملامح الكبل، وأخرى إبر الهواء، وكثيراً غرفَ التَّحقيق، ومرة السَّقوط الذي لا يقوم صاحبه، والعطشَ الذي خطفَ العشرات، بأي حال كان الموت يلاعبنا كالأطفال كي ندخل حياضه ونحن مؤمنين تماماً أن لا مفر منه إلا هو، إنني اليوم عندما أذكر ما فعلوه بنا هناك أزداد يقيناً أني لست نادماً على أي شيء فعلته ضدهم، إنني نادم على أي شيء لم أفعله ضدهم.

مضت الأيام ونحن نخرج كل يوم جثةً واحدةً فقط، إلى أن جاء يوم وسألنا المساعد عن تاريخ وفاة الشهيد الذي أخرجنا جثتهُ فقلنا له منذ ظهيرة البارحة لم يرد علينا بأي شيء، لكن المساعد المسخ لاحظ أننا حين يُفتح الباب نقف جميعاً ووجوهنا للحائط كالمعتاد، لكن باتجاه حائطٍ محدَّدٍ واحد.

في ذاك اليوم، فتح المساعد الباب كالمعتاد وأمرنا أن نُخرج جثث رفاقنا الذين تُوفوا البارحة وحين أخرجنا جثة واحدة، أمسك أحد رفاقنا وكبَّل له يديه وألقاه على الأرض وانهال عليه ضرباً على رأسه، ثوانٍ قليلة وبات دمه يملئ الممر الضيق، وصراخه بدا كأنه الجوع الذي كان سبب كل ما نحن فيه، لم يقل السَّجان المسخ بعد ذلك أي شيء، ركل المعتقل إلى داخل زنزانتنا ضرب الباب ومضى.

عرفت في سري أنهم اكتشفوا أمرنا.

مساءً كان لا بد لنا أن نفكر بماذا سنجيب حين يسألنا المساعد عن اختلاف رائحة الجثث وتغير لونها، الأستاذ حكيم حين عاد من التَّحقيق للمرة الثَّانية كان فمهُ مهشماً ولم يعد يستطيع النُّطق.

في منتصف الليلة التَّالية كشف الهول عن وجهه القاتل، وعلى حين خوف سمعنا دوياً هائلاً على باب زنزانتنا، كانوا يضربون الباب بكل قوتهم ثم فتحوه بعنفٍ شديد، وراحوا يُحرقون كل المعتقلين القريبين من الباب حتى أسقطوهم، ونادى مسخ منهم بأعلى صوته: ما الذي يحصل هنا ؟ ما الذي يحصل هنا ؟

كرر سؤاله ثلاث مرات، ونحن تحولنا إلى أحجارٍ ملتصقةٍ بالجدران، كان يستطيع أن يكبِّلنا جميعاً ويخرجنا ليرى الجثث التي كنا نخبئها، لكنهم كانوا يخشون على أنفسهم من العدوى، والحقيقةُ أنه كان قادراً على قتلنا جميعاً. لن يحاسبهُ أحد.

وحين ذات موت رفعتُ يدي، وبذات اللحظة أردت أن أتراجع واعتراني خوف شديد سيقتلونني لا محاله، ومرَّ وجه طفلتيَّ أمامي، وددتُ لو أنني أصغرُ وأصغرُ ثم أختفي، لكنه بأي حال رآني، ورذاذ النهاية أغرقني بين تصوراتي، كنت قد عزمت على ذلك وها أنا أبحث عن مخبأ بين المستحيل والمحال.

صرخ السَّجان بي: اقترب إلى هنا يا حيوان، وغدت الخطوات القليلة

التي تفصلني عنه كأنها أكوانٌ ودروبٌ وجبال وأنا أقتات لهاث الثَّواني لعلها تتمهل قليلاً، ارتعدت كثيراً لكني تمالكت ذاتي ومشيت باتجاهه مثبتاً نظري على الأرض، كنت قد كررت كلَّ شيءٍ في مخيلتي مئات المرات، سأتقدَّم حتى أقف أمامه وأفكر بشيء بعيد عن هنا حتى لا يمنعني الخوف من الكلام، بعد ذلك سيسألني لمَ رائحة الجثث التي تخرجونها منتنةٌ وفاسدة، ولماذا تقفون كلكم باتجاه الحائط المقابل لباب زنزانتكم ؟

سأحاول ألا أرتجف من الخوف أمامه، ألا أتكمش بما يرضيه، لا أريده أن يشعر أني أتوسَّله بعيني كي لا أموت.

والحقيقة أني كنت أتشقق خوفاً مما يمكن أن يفعله بي، فهذا السَّجان بالذات مجرم متمرس بالقتل، تقدمت نحوه ووقفت أمامه ونظري مثبتٌ على الأرض، رفع الكبل وضربني على فخذيّ، شعرت بحرارة شديدة على جلدي في أقل من ثانية تحولت لألم لا يطاق تمالكت نفسي ولم تنتصر ملامح الوجع على وجهي.

صرخ: قل لماذا رائحة الجثث مختلفة عن باقي الزنازين ولماذا تقفون كلكم مقابل هذا الحائط؟ وضربني ثانية...

أردت أن أرتب أفكاري، لكني لم أستطع، كل تصوراتي عن حواري معه طيلة الليل تبددت أمام هذا الخوف السَّحيق الذي ينتابني الآن، لعنت كل شيء قادني إلى هناك وتهت في جسدي المنتفض أمامه وبقية الرعشات

تملكتني حد السُّقوط.

كنت أريد أن يحصل أي شيء لأتأكد من أنه لا يراني وأني لا أقف أمامه وأن الثَّواني القادمة لن تنتهي بسلخ جلدي حياً ثم فقأ عيناي.

سعل معتقلٌ من زنزانتنا سعال الموت الطويل، فشعرت أن أنفاسي عادت لصدري وأني لازلت حياً ويمكنني أن أتحدث في هذه اللحظة كالرَّجل الذي تخيلت أني سأكونه.

رفعت رأسي ونظرت في عينه، وكانت أول مرةٍ أرى فيها وجهه، واعتراني احتياج عميق للتقيؤ فبعض البشر هكذا بمجرد أن تنظر بعيونهم تشعر أنك تغرق في تاريخ من الدناءة، كانت سيجارته المتشبثة بشفاهه الزرقاء تطلق دخاناً كثيفاً اختلط برائحة عطره الرخيص، فشكَّل كل ذاك شناعةً زادت من تماسكي قليلاً، كنت أقف تحت إطار باب زنزانتنا تماماً وهو على بعد خطوةٍ واحدةٍ مني.

لست أدري كيف ابتدأت كلماتي لكنني قلت: "نحن نخبئ الجثث داخل زنزانتنا سيدي".

اتسعت عيناه وفتح فمه ونظر إلى وجه السَّجان الأخر الذي معه، ابتلع ريقه، وأمسكني من رقبتي وجرني خارج الزنزانة، وأومأ للمساعد الآخر ليغلق الباب، وهذه كانت علامة موتي، لقد أزفت نهايتي، ولاح لي خلف ملامح وجهه شيء من الخوف، ربما أنه لم يكن خوفاً لكنه غير ذاك

التَّوحش الذي كان يريدوننا دوماً أن نراهم من خلاله.

لكنني أكملت: نحن نخبئ جثث رفاقنا الذين يموتون كي نتقاسم حصتهم من الخبز سيدي، أنتم تسألونا عن عددنا في الزنزانة، وتعطون لكل خمسة معتقلين رغيفاً واحداً، ونحن اتفقنا أن نخبئ جثث رفاقنا الذين يموتون معنا كي تكون حصتنا من الخبز أكثر فنأكلها لأننا كل يوم نموت من الجوع يا سيدي.

واعترتني رغبة بحجم الوطن في البكاء، اختنقتُ بعبراتي فشهقت وارتجفَت ملامح وجهي وحاولت جهدي ألاَّ أبكي أمامه رغم أنه رآني أبكي عشرات المرات، لكني كنت في تيك اللحظة محتاجاً لانعتاقٍ يفوق الزمن، شعور يحيلني جثةً عبرَت للخلاص وهي اليوم على منابر النور، مرت ثوانٍ وأنا أنتظر الموت، كيف سيكون طعمه، هل سيكون مؤلماً أكثر من التَّحقيق، ما الذي سيفعله بي، هل سيحرقني أم سيَقتلع عيوني، ولاحت أمامي ألاف الأشياء وكأني لست هناك ولم أعد أرى أي شيئاً.

سقطتُ على الأرض ووضعت رأسي بين ركبتي ثم أخفيته بيدي وعلا صوت نشيجي الذي سمعَتهُ كلُ الأحجار هناك، كنت مهزوماً لأننا تُركنا فريسة لهؤلاء، لست أدري من تركنا لهم لكنّا بأي حالٍ تُركنا.

توقعت أن يعدمني بعد نظري في وجهه وجلوسي على الأرض دون إذنه، لكنه ضربني بالكبل على ظهري وصرخ فيَّ قائلاً: أخرجوا الجثث

المخبئة كلها فوراً، تحرك يا حيوان.

عرفت أني لن أموت وأنه لن يَقتلَ أحداً منا، وما إن أنهى كلامه حتى دبَّت فيَّ طاقةٌ هائلة، فعدت للحياة بعد موتٍ حسبتهُ دام مئات السَّنوات.

بعد أن أخرجنا الجثث بكينا معاً، حضنت ودود وبكينا طويلاً، وابتسمنا بمرارة أن أحداً منَّا لم يمت من جراء ما جرى، وعُدنا من جديد نمسح الجدران بجباهنا من الجوع، نفكر كيف يمكن أن نحصل على بعض الفتات لننقذ أرواح رفاقنا الأخرين، والأستاذ حكيم ارتجف كثيراً، اختنق بعبراته، مسح عينيه ثم بكى وهز رأسه ونطق بصعوبةٍ بالغةٍ: اللهم إنَّك ترى وهذا يكفي.

أيها السُّوريون الذين ستقرؤون هذي الكلمات حين سأكون عظاماً في قبري: لقد كنا نخبئ جثث رفاقنا في زنزانتنا من شدة الجوع، نخبؤهم ليس حباً بالحياة، فالحياة هناك كانت أمرٌ بكثير من الموت، بل لأجل أن نبقى ولا نفنى، لأجل ألا يموتَ الوطن، لأجلكم أنتم ضحى كل أولئك الأباة بأغلى ما لديهم وذاقوا الموت الزُّؤام. نخبئ جثث رفاقنا، شركاءنا في العذاب كي نستمر لأجل حريتكم وحريتنا ، لأجل فعل الشَّرف الذي هو واجبنا إزاء الوطن، لنكملَ نضالنا الذي لم يمسي في سبيل حريتنا بل لأجل هويتنا، لنعرف من نكون.

فبحق كل تلك الدماء التي حفرت عذاباتها على جبين التَّاريخ، لا

تفرطوا بقطرة دم واحدة أُزهقَت في درب حريتنا المفقودة، فالسُّوريون الذين سبقوكم سفحوا دماءهم رخيصةً لأجلكم، ولم ينتظروا كلمة عرفان من أحد، لا تساوموا على ما ليس لكم به وجه حق، لا تخونوا حضارة من التَّضحيات لم تكونوا شاهديها، لقد كانت الفجيعة يا أحبتي أبعد من كل اللغات.

إن الثَّورة على هؤلاء هي الشَّرف المقدَّس الذي يجب على كل إنسانٍ أن يَهبَ نفسه له، أو أن يموت وهو يحاول أن يناله، لقد أجرموا بحق الشَّعب والتاريخ والإنسان وكل خيرٍ في هذا الوجود، حتى باتت الكلمات تستحيل لغبارٍ يخفي تحته ملامح الحقيقة النَّازفة حين نكتبه، فإن لم نكن مخلصين أبد الدهر وكل العمر لأرواح أولئك الصَّناديد الذين لاحت لهم في لحظاتهم الأخيرة صورُ أطفالهم ونساءهم وأحبتهم فأشاحوا بوجوههم عنها لأجل الوطن، وفضَّلوا الهتافات على الكلمات، واختاروا المجد على الحياة، لا نستحق بعد ذاك أن نكون شعباً له ماله من تاريخ عظيم وتضحياتٍ جليلة. فالوعد الوعد، والإخلاص للحرية يا أيها الباقون منَّا.



وهذي قيود القاع تشدكَ للأسفل، تمنعك من أن تكمل حلمكَ بالنداءات الأخيرة، وأعشاب لسانك حصدها ضِيقُ نفقِ الموت الواجم، وأنت والقدر رهانُ الأزقة الخالية من كل أولئك المفقودين.

حين رمى السَّجان عبد الحي في أرض زنزانتنا وأغلق الباب كان الدم يغطي كل ملامحه، قدماه المسلوختان وجسده المفتت والدُّود الذي كان عالقاً على جلده، جعلني أعرف من أين جاؤوا به، كنت أعرف هذا النوع من العذاب الأليم.

في جحيم مبنى الإدارة العامة كانوا قد ابتدعوا نوعاً من التَّعذيب لم يسبقه إليهم بشر، حتى في عصور الموت الأحمر، كانت لديهم زنزانات منخفضة عن ارتفاع أبوابها بما يقارب نصف متر كأنها بِركةٌ صغيرةٌ مملوءةٌ بالماء القذر، سقفها شبكٌ من حديد وفوقه يأتي السَّقف الإسمنتي وبينهما تمر فتحات الهواء، لا يتجاوز حجم الزنزانة مترين في ثلاثة، ونتيجةً لعدم خروج المعتقلين للمراحيض تختلط المياه بكل أنواع الفضلات فتمسي رائحتها عذاباً لا يُطاق.

قبل عامٍ مضى كنت هناك، وفي عصر ذاك اليوم حين قرأ المساعد أسماء ستة معتقلين كنت واحداً منهم، كان قد مرَّ عليَّ أربعة أيامٍ وأنا عارٍ من ثيابي، مات خلالها عشرة معتقلين من البرد، كانوا يتركوننا في السَّاحة كل الليل ونحن عراةٌ بين أنياب الصقيع.

بعد أن كبَّلوا أيدينا مشينا خلال الممر الضيّقِ حتى آخره، وهناك أوقفونا ووجوهنا للحائط، وعلى حين موت أخذوا يضربوننا بكل ما لديهم من كبال وقضبان على رؤوسنا وعلا صوت الكفر والسَّباب والشتائم، وخلال ثوانٍ قليلة سقطنا جميعاً إلى الأرض بينما فتح أحدُ مسوخهم الزنزانة القريبة من مكان وقوفنا.

كانت الرائحة قاتلةً لدرجةٍ مهولة، وجاء أحدهم يحمل جنزيراً من حديد يلوِّحُ فيه ثم يهوي به على أجسادنا، وراحوا يصرخون بنا كي ندخل إلى زنزانة الفناء تلك، وكلما اقترب أحدنا من بابها ركلوه حتى أسقطونا جميعاً فوق بعضنا داخل مستنقع الموت ذاك، وبدا صوت الماء ثقيلاً كأنه بحر من الدم، بينما أغلقوا الباب وذهبوا.

رُحنا نرنو في الماء الذي غمر أرجلنا حتى الركبة ونحن نعلم أن بعضاً منَّا لن يخرج حياً من هناك، أتراه أنا؟ أهذه نهايتي؟ أم أنه هذا الشاب النحيل حد الخوف الذي كان يرتجف من البرد حتى قبل أن ندخل إلى هنا؟

الوقت كان كعادته دوماً متآمراً معهم، ومرت السَّاعات والبرد يلتذُّ

بتحويل جلد أرجلنا إلى غشاء رقيق يتسرب الموت من خلاله، مساءً بدأ الشَّاب الذي لم يتجاوز الثَّامنة عشرة يتقيأ ويبكي ويرتجف بشدة، يجلس قليلاً في الماء الذي تغيّر لونه من البول والبراز ثم يعود ويقف من شدة صقيع الماء، ومازال الكون حتى هذه اللحظة يضجُّ بصوت تلاطم الماء هناك.

أخذت أشعر أن الجروح التي بقدمي اتسعت لدرجة أن كل الماء الذي بالزنزانة لن يكفيها، وأردت أن أمسك ذاك الشَّاب الذي كان يسقطُ كل دقيقةٍ وأخرى، لكنه كان يحتاج إلى قوة لم أعد أملكها كي أجعله يتمالك جسده، اقتربتُ منه، فوضع يده على كتفي، ضغط بكل قوَّته ثم هوى في الماء.

صوت سُقوطه دفنَ كل شيء، سقطَ كأنه ميتٌ منذ ألف عام، سقط جثةً ليس فيها حياة أبداً، حاولت مع معتقلٍ آخر أن نجعله يقف مرة أخرى لكنه كان قد فقد وعيه تماماً، جحظت عيناه بشكل مخيف ونزف دماً غزيراً من أنفه، فأسندناه إلى الجدار حتى لا يختنق، وسكن كأنه أحد أحجار تلك الزنزانة المظلمة، كان عَطِشاً ونحن في بركة ماء، وحقائب العمر بدت ضريرة الدروب، ونحن نبكي قليلاً ثم نستسلم لرعشات البرد الذي لم ترحم سياطهُ ما نحن فيه.

في منتصف الليل كان اثنان منا قد سقطا في الماء، لم أكن قادراً على تحريك فكي لأهمس بأي شيء، وزادت حدة ارتعادي، ولم أعد أتحكم

بتصرفات جسدي، فكان رأسي يهتزُّ دون إرادةٍ مني، حتى أجزاؤنا حين تشعر باقتراب الموت تتمنى لو أنها تفرُّ منّا.

مضى الليل طويلاً كأن شتاءات العمر كلها سكنت فيه، والبرد جمَّد الدَّم في أجسادنا، في صباح اليوم التَّالي زاد افراز اللعاب الذي يسيل من فمي حتى كاد يخنقني ورأيت ثلاثة معتقلين وقد سقطوا في الماء، كان صوت سقوطهم يثقب أعماقي من جديد ويغرسُ في داخلي ذبول الوقت وأنا أترنح على بعضي.

وبدأت أتقيؤ كخطوةٍ أولى نحو الموت، وجلستُ في الماء أخيراً وشعرت أنه أكثر دفئاً من صقيع الزنزانة لكنها مجرد أوهام كانت تعتريني، فبعد دقائق قليلة ملأني ألمٌ شديدٌ في معدتي، ألمٌ يقطعُ أحشائي، فعدت ووقفت وآمال عتيقةٌ تتداعى في داخلي، تقيأتُ عدَّة مرات حتى اختنقتُ وخارت قواي. والمعتقل الذي سقط في الماء البارحة كان قد فارق الحياة وتوحد لونه مع الماء الأسود، والبؤس أمواج تهدم حواف الحياة التي كنا نحنُّ إليها، ولم تعد قدماي تحملاني فانحنيت باتجاه الماء وكنت أحسب أني أقف على طرف عتبةٍ صغيرة وبمجرد أن أخطو خطوةً واحدة سأغرق في أعماق هذه الزنزانة التي ابتلع مستنقعها ثلاثة أحرارٍ كل جريرتهم أنهم هتفوا لحرية الوطن، وبدا لي أن الماء عميقٌ، عميقٌ جداً، وأنَّ الوطن هناك في الأعماق يرقد وحده.

ثم رحتُ أرى تحت سطح الماء كل ملامح الشُّهداء الذين رحلوا أمامي،

وأنظر للشَّاب الذي توفي عن يميني وأريده أن يشاهد معي لأسأله هل يرى ما أراه، وانفصلتُ عن كل ما أنا فيه حين رأيت وجها طفلتيّ تبتسمان تحت الماء، وغمرني دفءٌ ملأ قلبي وحنينٌ جعلني أنتحب بشدة، يسكنني احتياج طاعن لهما، اختلاجاتٌ من عطرٍ بريٍ مهاجر غطى وجهيهما، وخنقني القيء الذي ملأ حلقي، لكني سددت فمي بيدي خوفاً من أن يسقط مني شيء يُشوه وجه ابنتيّ.

ومرَّتْ تحت أمواج الماء كل مظاهراتنا التي كنا فيها أنقى من هتف يوماً للحرية، ومددت يديَّ حتى ألامس وجه أي أحدٍ من كل أولئك الذين أحبُّهم، وشعرت أن المسافة بعيدة جداً بيني وبين الماء، حاولت جاهداً أن أحتفظ بصورهم لثوانٍ أخرى لكنني سقطتُ أخيراً في الماء كما سقط كل من كنت معهم هناك.

عدتُ لوعيي حين شعرتُ بذراع أحد المعتقلين يمسكني من تحت كتفي ويجرني نحو الحائط وأنا أتقيأ، لا أدري ماذا أتقيأ فنحن منذ يومين لم نأكل أي شيء، كان ثلاثة منا قد سقطوا في الماء، اثنان منهما استشهدا هناك.

في مساء اليوم الثَّالث، فتح المسخ السَّجان باب الزنزانة ورمى لنا بأربعة رغفان من الخبز في الماء الذي كنا نقضي فيه كل حاجاتنا.

بصق المسخ علينا ثم أغلق باب الزنزانة وذهب، حين رأيت الخبز

حاولت أن أقف لكني لم أستطع كنت أريد ان آكل أي شيء، أي شيء، فزحفتُ نحو قطع الخبز التي اختلطت بالماء وأمسكتُ رغيفاً لأكله لكنه تفتت بين يدي وتلاشى، كما يتفتت الوطن حين يخونه أبناؤه، وكما يتفتت القلب حين يرى طعناته تنزف رائحة من وثق بهم، وكما يتفتت التَّاريخ حين يضيق صدره بظلمٍ لم يعرفه أحد ولم يكتبه أحد.

أمسك المعتقل الذي كان قريباً من الباب برغيف لم يتفتت بعد، وأشار لي كي أخذ نصف ما بيده، اقتربتُ منه وأمسكتُ نصف ما في يده وشددتها فبقي لديه نصفٌ ولدي نصفٌ، التَّهمت نصف الرغيف المغموس بكل أنواع الفضلات دفعة واحدةً والجوع ينهش كل جزءٍ في داخلي.

كان مريضاً جداً فدفع لي نصف الرغيف الذي بدأ يتفتت بين يديه، رفعت رأسي ودفعتُ يده باتجاه فمهِ ليأكل، ثم حرَّكتُ يدي مشيراً له كي يأكل، لكنه بكى وبكيتُ معه، بكى حتى فقد وعيه وغاب بين زحام الصرخات التي لم يسمعها أحد، وتفتت نصف الرغيف الذي كان في يده ولم نأكله نحن الاثنان.

في صباح اليوم التَّالي أصبح بصري ضعيفاً جداً، ضعيفاً لدرجة أنني أحتاج لدقائق حتى أميزَ ملامح رفاقي في ذاك العذاب الذي ليس له مثيل سوى بقلوب أولئك المسوخ التي كانت أقذر من كل ما عرفته في حياتي. وكل ما كنت أحتاجه غفوة واحدة تنشلني من جحيم البرد والصَّحو الذي أنا فيه.

فتح السَّجان الباب، ودون أي كلمة راح يضرب المعتقل الأقرب للباب على رأسه بالكبل، ويصرخ كي نُخرج جثث شهدائنا هناك، كان ثلاثة منا في الماء منذ يومين، اثنان منهما فارقا الحياة والثَّالث غائب عن الوعي، بدأ المعتقل الذي كان تحت كبل المسخ السَّجان يفقد وعيه، فزحفت إليه وأمسكت يده كي نجر أحد الشهداء هناك.

قاوم الكبل وزحف معي، وبدأنا نجر المعتقل الذي كان أقرب للباب، والمسخ المساعد يكوي ظهورنا بالكبل، ولحومنا كانت قد تحولت لغشاء هش بعد ثلاثة أيام في ذاك الماء الذي مازال يغرقني حتى اليوم.

سقطنا عدة مرات قبل أن نُخرج أحد الشهداء، أمرنا المسخ أن نقف ووجوهنا للحائط وقفت لثواني ثم سقطت على الأرض، فضربني المساعد المسخ على رأسي ولم أعدْ أرى أيَّ شيءٍ سوى أن معتقلين آخرين جروني من قدمي وأعادوني للزنزانة التي خرجتُ منها قبل ثلاثة أيام ليتم تحويلي بعدها لمنفى آخر.

دخلنا ستةً إلى هناك وخرجنا ثلاثةً، والبقية مازالت أرواحهم ترقبُ دروب الوطن لعل النصر يأتي يوماً.

تركوا لكم كلَّ أحلامهم وصرخاتهم ورسائلهم ودماءهم وشهقاتهم ونظراتهم قبل الموت وغابوا، وهبوكم أغلى ما لديهم ومضوا دون أن يطلبوا شيئاً من أحد.

تذكَّرتُ كل هذا وأنا أضع رأس عبد الحي على فخذي وأنظر في وجهه الممزق. حين أجلسناه للحائط راح ودود يمسح على شعره، تغيَّر كثيراً ودود في الآونة الأخيرة، كان يبدو بائس الملامح، لم يعد كما كان في الماضي، فالبسمات أضاعت دربها إلى وجهه الجميل، كان يغرق في كآبةٍ لا حدود لها، فمنذ أقل من أسبوع خطب المسخ الأكبر رئيس دولتهم خطبةً حضَّهم فيها على المزيد من القتل كعادته.

في تلك الليلة طلبوه وأخذوه معهم، في الصَّباح عاد وفي عينيه هلعٌ سحيق وخوفٌ عظيمٌ، كانت المرة الأولى التي نشاهد فيها ودود يبكي بشدة، ومذ آنئذ لم يعد لعادته كما كان بيننا، وبالكاد أجبرناه على أكل قطعة خبزٍ بعد امتناعه يومين عن الطَّعام، صار يجلس لوحده ويبكي طويلاً.

وزاد حالته سوءاً أنهم البارحة أدخلوا لزنزانتنا أحد مجرميهم كعقابٍ له من قبل رئيس المسوخ الذي يديرهم ليكون رئيساً لزنزانتنا، تغيرت حياتنا كلها. وفي السَّاعة الأولى لوجوده بيننا ضرب ودود على فمه حتى نفر الدم من شفتيه، واستحال كل شيء إلى جحيمٍ مضاعفٍ وظلمٍ مضاعفٍ.

بعد دخول عبد الحي لزنزانتنا بأسبوعين طلبوه للتحقيق، وها قد مضى أسبوع بأكمله وهو هناك، وحين أعادوه كانت رائحة لحمه المحترق تزيدني يقيناً أنه لن يكون هناك خلاصٌ طالما نحن أحياء. ففي ذاك العالم السُّفلي المظلم الذي نصَّبوا فيه أنفسهم آلهةً علينا تمسي الشَّمعة اسماً أشدَّ رعباً من كل أسلحة الأرض فتكاً وموتاً.

بعد أن ذاق ألم الحريق والتعذيب الشديد أصبح عبد الحي يخافُ من موعد قدومهم، وعلى وقع اقتراب أصواتهم يحاول أن يزحف لإحدى زوايا الغرفة ليهرب منهم، ومحاولاته تسلب الوقت حاشية الوقار فيطلُّ كل شيءٍ من تحت البذاءة والصريخ. ولم تمضِ خمسة أيامٍ على تحقيقه الأخير حتى جاؤوا يطلبونه مرة أخرى، بدأت خطواتهم تتسارع وشتائمهم تقترب، لحظات وفتحوا الباب وصرخ المساعد المسخ عليه.

كان عبد الحي ممدداً على أرض الزنزانة يمين الباب، بينما وقفتُ بقربهِ بالكاد أستطيع مسَّ الأرض برجلي لعمق الجروح التي فيها، رفع المساعد كبله وهوى به على ظهري وهو يقول : ساعده ليقف يا حيوان، ذاك الجبان كان يعرف أني بالكاد أقف على رجلي فكيف أعين عبد الحي.

استندتُ على الحائط ومددتُ يدي كي أُعينَ عبد الحي على النهوض وحين شددته انزلقَت رجلي بالقيح والدم الذي يسيل منها كل الوقت فوقعتُ فوقه.

ولن أنسى حتى آخر لمحة من حياتي. كيف انهالوا علينا ضرباً بالكبال على كل جزءٍ منَّا، وكيف كان عبد الحي يضع يده فوق مكان جرحِ رجلي كي لا يصيبني الكبل فيغمى عليّ، بعد الكبل العشرين وضع المساعد رجله فوق صدري وقال: "ما اسمك؟".

كان فمي مملوءاً بالدم، فقلت له: "وائل الزهراوي سيدي".

ثم صرخ: "أي رجلٍ تؤلمك؟"

أشرتُ له هذه اليمنى سيدي، فرفع الكبل وضربني بكبله على مكان جرح رجلي، حتى شعرت أني قد انقسمت نصفين وأن رجلي قد انقطعَت، ورحت أنتحب وأصرخ، لم يغمَ عليَّ لكنني صرخت بأعلى صوتي، فزاد سرعة ضرباته حتى أغلقتُ فمي بيدي وأنا أستنجد بالأحجار كي يتوقف عن تقطيعي، كانت ملامح وجهه وهو يضربني تنغرس في داخلي وتعيد ترتيب حياتِي وأنا أحاول أن أتقي وجهه بأي شيء أملكه، أنا لست من يجب أن تسوطه يا أيها الضحية المُجرمة.

سحلوا عبد الحي من رجله وأخذوه، كان يَمضي وعيناه تحدقان بِي، مضى للعذاب والحريق، مضى لأفظعِ جُرمٍ عرفته البشرية، لأعتى توحشٍ اختارَته السُّلطة كي تظهر ذاتها منه، عندما سمعت المساعد يقول : أشلعوا الشَّمعة، أصابتني حالة دوار وانهيار تام، إنهم لا يحققون معه، إنهم يعذبونه فقط.

والشَّمعة تعني أنهم بعد أن ينزعوا عن المعتقل كل ثيابه يضعونه على كرسي من حديد ثَبتوا أرجله داخل الإسمنت بحيث لا يتحرك أبداً وليس له سطح ليجلسَ عليه الإنسان، فيجلس المعتقل على الكرسي المقعر، ثم يربطون رجليه مع رجلي الكرسي بالجنازير، ثم يشدون جنزيراً آخر حول خصره مع ظهر الكرسي، ويكبلون له يديه للخلف بأصفاد الحديد. فيصبح ملتصقاً تماماً بالكرسي.

بعد ذاك يأتون بصندوق ويضعونه تحت الكرسي فتكون المسافة ما بين الصندوق وجسد المعتقل أقل من عشرين سنتيمتراً، ثم يضعون شمعةً فوق الصُّندوق، فتكون الشَّمعة تحت المنطقة الواقعة بين الجهاز التَّناسلي والمؤخرة، وهناك يشعلون الشَّمعة تحت المعتقل.

وتبدأ الشَّمعة بإحراق تلك المنطقة المليئة بالأعصاب واللحم الطري، ويبدأ الصُّراخ يشق كل صمت هذا العالم الرخيص، والشَّمعة رغم كل توسلاتنا لا تتوقف عن أكل اللحم الذي يتقطر كالدهن في حالة الشِّواء، ويبدأ المعتقل يحترق ويبحث عن أي خلاص، أي شيء، أي قوة يستنجد بها، أي درب يوقف احتراقه، أي شيء، يخرجُ عن المكان والزمان والأسماء والأماكن والتاريخ والأحبة والحياة، كل ما هو مملوءٌ به ألم الحرق الذي لا يتوقف أبداً.

وعندما تصل النَّار للحم الأحمر تحت سطح الجلد يصبح الصُّراخ عويلا يعجز عنه كل أهل القبور وتشتعل ضفاف الأمنيات الأولى وخطواتنا البعيدة في مظاهراتنا البيضاء تسمح دموعها هي الأخرى بينما نبدأ نحن بالبكاء. والحقيقة أن المؤلم أكثر من كل ذلك أن تسمعهم يتحدثون في ذات الوقتِ عن الطَّعام والشَّراب والحياة كأنهم لا يفعلون شيء بحرقهم إنساناً وهو على قيد الحياة، وربما أن الذي يجبُ أن يؤلمنا أكثر أن كل هؤلاء سوريين يحملون ذات الهوية التي نحملها.

عندما أحرقوا عبد الحي في المرة الأولى أغمي عليه ثلاث مرات، وهذا

ما أغضب المساعد فضربه على رأسه بكبل الدَّبابة حتى عميَت عينه اليمنى، ولهذا كان حين يحدثني يلتفت إليَّ كله لأنه لا يراني إلا بعينه اليسرى، ويَئِنُّ كل الوقت فالحرق في هذه الجزء من الجسد يجعل كل حركة يقوم بها الإنسان مؤلمةً لدرجة البكاء.

مكرهاً أن يبقى عارياً من ثيابه كل الوقت والأسوأ من ذلك أنه كان يقضي كل حاجاته على نفسه، وكم كان ينتحب وجعاً حين كنا ننظف له إليتيه وأعضائه التَّناسلية المحترقة، ولن تنسى الأرض هناك كيف كان يبكي ويصرخ ويغطي وجهه خجلاً منَّا.

في تلك الليلة النَّكراء فتحوا باب زنزانتنا، ونادوا على عبد الحي مرةً أخرى، لم يمضِ على حرقه الأخير سوى أربعة أيام، وستكون هذه المرة الثَّالثة التي يحرقونه بها، جسده مملوء بالتقرحات، وظهره ليس عليه سوى بقايا لحم هنا وهناك، كان قد فقد كثيراً من وعيه. وبدا كل شيءٍ منحازاً لهم، وأحلامنا القديمة احترقت كلها بجسد عبدالحي الشهيد، وعرفنا أننا هناك لسنا أكثر من ظلال حكايات لن يذكرها بعد موتها أحد.

رئيس غرفتنا الجديد كان مجرماً، ركل عبد الحي على رأسه وجره إليهم، أمسكوا رجله وسحلوه، وأخذ يبكي فور خروجه من الغرفه وينادي على أمه ثم ينادي على أبيه، وبدَونا نحن كشيخوخة القنوط على مفارق الشَّتات لا ندرك أي شيء، وكأن الموت أمسى نعيماً يرفض حتى أن يقبلَنا في قوائمه الطويلة.

بعد دقائق ارتفع عويل عبد الحي، عرفتُ أنهم يحرقونه بالشَّمعة، وبدأ صوته يزداد، وعويله يصبح أكثر عمقاً وينغرس في صدري كسكين، وبدا لي كم نحن طاعنون في البؤس وكيف أن من خاطر بروحه قبل جسده لن يجبن أمام الموت وحمحمته، لكن الجسد لعنة.

في مساء اليوم التَّالي عندما أعادوه لزنزانتنا، كان في غيبوبة كاملة، رموه على الأرض وذهبوا، بعد برهة صحا، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وكنتُ ممدداً بقربه، أمسكت يداه وكانت الدموع هي حروف الكلمات، همست بإذنه تماسك أُخيَّاه، فأومئ لي برأسه عدة مرات وعيناه نصف مفتوحتان، كانت كفُّه تشدَّ قليلاً على يدي، وينظر باتجاه ظهره، يبكي ويئن من الألم، صار بعد قليل يصرخ وينتحب، همست له أني سأرى ما يؤلمه، وكانت الفاجعة التي مازالت تمر أمام عينيَّ حتى اليوم.

كان اللحم بين فخذيه مختفياً تماماً، وثقبٌ كبيرٌ جداً بين مؤخرته وأعضائه التَّناسلية ينزُّ دماً ودهناً وبعض قطراتٍ بيضاء لست أدري ما هي، ويمكن للإنسان أن يدخل يده كلها في ذاك الثَّقب الذي صنعوه بجسده الضَّعيف، وفوق هذا كان قد قضى حاجته وتبرز دون أن يعرف ودون إرادة منه، فاختلط كل ذلك داخل الثُّقب الكبير الذي كان يبدو لي أعمق من كل طغيانهم هناك، واصفرار الوقت كان يقف هو الآخر بقربي ليراقب تجاويف الحزن التي تتسع للكون كله في دواخلنا.

كنت أعلم أنه سيموت، لكنهم أضعفُ من أن يقتلوا جيلاً لفظهم

للأبد وحتى نهاية التّاريخ، إن أهم ما في الموت أنه يعطينا قيمة الحياة، وعبد الحي كان وطناً بملامح رجل ، لن يموت لأن روحه ستبقى هناك تسكن حروف اسم سوريا كلما رددته الأجيال وراء الأجيال.

اقتربت منه وضممته إليَّ، كان يهمس لي، اقتربت منه أكثر فقال : لا تتركني لا تتركني، أولادي، سلم لي على أهلي، لا تتركني، يا رب ساعدني... وراح يكررها عشرات المرات، ارتجف صوتي وأنا أعيد عليه لا تخف لن أتركك أبداً، لن أتركك طالما أنا حي، والحقيقة أنني لم أكن أعرف هل أنا حيٌّ أمْ ميْت.

كانت عينه اليمين أيضاً تنزف بشدةٍ، وتقيأ قطعة من الدم بحجم نصف كف اليد، ثم تقيأ مرة أخرى قطعاً من الدم وهو يبكي ويختنق وينزف من كل مكان في جسده، أظافر رجليه كانت قد سقطت منذ زمن لأنه كان في زنزانة مستنقع قطاع الإفراديات، كم هو عصي أن يدركَ الإنسان أن كل جريمته في وطنه أنه مواطن حرٌ فيه، في الليل كانت تأتيني نوبات حمى نتيجة التهابات جسدي وجروح رجلي، غفوت ويداي تحيطان يد عبد الحي، عندما صحوت وجدت عبد الحي قد مات، كان مغطى ببطانية وملقىً عند الباب. رحل عبد الحي وتركني وحيداً في ظلام غيابه الذي لن ينتهي أبداً.

سيعجز المطرُ أن يغسل آثار دماءنا من هناك، وظلالنا لن تغيب وقطرات صرخاتنا لن تجفَّ أبداً، ونحن لن نُمحى، وسنبقى معتقلين داخل

ملامح كل أولئك الأباة حتى تصحو الهتافات، عبد الحي أيها الوطن المحروق، سيرحل الغرباء، وتنصت السَّماء من جديد لصرخاتنا الخالدة، سأحضنك كل عمر وأحلم بك كل بكاء، وأضمّك كما كنت أفعل وأصحو لأبكي طويلاً، لتبقى في داخلي حتى يفنى الزمان.

لم يكن الموت هو ما ينتظرنا في رحلة التَّحقيق الثَّانية لقد كان أفظع عذاب عرفته البشرية مذ وُجِدتْ، أما فَقدُنا لودود فكان قيد الحزن الذي اعترانا حتى اليوم، ورحيله دون وداعٍ أحالنا لشحوب السَّقوف التي بات كل الشهداء يأوون إليها في الليل ليحدثونا عن هموم الفراق الطويل.

منذ يومين وفي منتصف الليل فُتح الباب ووجيبهم كوجيب الضِّباع الجائعة طلبوا ودود، وما إن وصل باب الزنزانة حتى رفع أحدهم كبل الدَّبابة وهوى به على رأسه، بينما انهال عليه البقية ضرباً بالقضبان الحديدية وهو يصرخ ويبكي وينوح، كبلوا له يداه للخلف، ثم أغلقوا الباب، ثوانٍ قليلة ووصل جئيرهُ عنان السَّماء، كان يصرخ من أعماقه ويشخر ثم يعود للعويل ويطلقُ أصواتاً لا يمكن للبشر أن يسمعوها دون أن يفقدوا ملامحهم.

اجتاحنا صمتٌ عميقٌ ونحن نستمع لصوت ودود وهو يبكي ويجلجل من الألم، وخيمت علينا ملامحه وصوره وكلماته ورائحته وحروقه التي كانت تسكن جسده كأنها ولدت معه، ومخالبه التي كانت مَعْلَمَ التَّوحش والجمال فيه، بعد قليل هدأ صوته ثم اختفى كأنه لم يكن أبداً، لم يعد ودود لزنزانتنا ولم نره بعد تلك الليلة، حتى المعتقلين الذي يستعملونهم في

أعمال السُّخرة لم يعرفوا عنه أي شيء.

مضت أيامٌ طويلة حتى زُحنا فجر ذاك اليوم في السَّادسة صباحاً نخرج للحمامات، كان الخروج للحمامات بمثابة نفق موتٍ ندخل فيه كل يوم، نخرج كل عشرة معتقلين معاً، نتفق من يريد أن يتغوط ومن يريد أن يتبول، ندخل كل خمسة معتقلين إلى مرحاضٍ واحدٍ، أحدنا يجلس كي يقضي حاجته والأربعة الأخرين يتوزعون على زوايا المرحاض الأربعة ويبولون فيها، ومن يكن بحاجة للتبرز ينال ربع كمية البول من المعتقلين الأربعة البقية، المدة المعطاة لنا هي دقيقة واحدة فقط، إن حصل وتجاوزنا الدقيقة سنتعرض لنوبة عذابٍ تنتهي بقتل أحدنا على الأقل.

كنت في الدفعة الثَّالثة للمراحيض، خرجنا نركض ورؤوسنا باتجاه الأرض وكل منا يمسك بمؤخرة المعتقل الذي أمامه، نتوقف لثوانٍ أمام المراحيض حتى يضربوا أول واحد فينا علامة الدخول، رفع السَّجان الكبل وضرب به رأس أول واحد منَّا، فدخلنا، وخلال دقيقة كنَّا قد خرجنا والتصقنا بالجدار، كان الممر ضيقاً ليس أكثر من مترين والأرض تفوح منها رائحةٌ قاتلةٌ، هي خليطٌ من قيح ودم وبصاق وبول وقيء، والجثث الصَّامتة هنا وهناك كانت تنادي علينا أن سلاماً عليكم وعلى حكاياتنا بالأمس معكم.

وقفنا ننتظر الإذن كي نتحرك باتجاه زنزانتنا، هناك رأينا من بعيد كيف كانوا يرمون جثثاً جمعوها في غرفة الموتى ، الجثة الأولى، الجثة الثَّانية، الجثة الثَّالثة، وتسمَّرت أرجلنا وجحظت عيوننا من هلع المشهد الأليم

وبدت دموعنا سجينة مراتع العجز حتى عن إطلاقها، كانت جثة ودود مرمية هناك كوطن مهجور، كدمعة تسعل صدى شهقاتها الفقيدة، تسابقت الثَّواني تحت حريق السِّياط ونحن ننظر إلى جسد ودود المسجى بكل السَّاعات التي استطاع فيها أن ينقذنا من اليأس قبل الموت بضحكاته وحكاياته ومخالبه التي اقتلعوها قبل أن يقتلوه.

كيف يمكن لودود أن يموت، البعض لا يمكن أن يغادرنا حين يرحل، شيء منه يبقى فينا ، ربما لأنه لم يكن معنا بل كان منا، لم نبكِ مرَّةً واحدةً جميعاً في زنزانتنا كما بكينا على ودود، في صباح اليوم التَّالي كنا قد كبرنا عمراً بأكمله في ليلةٍ واحدة.

وهناك أمام جثثِ أولئك السُّوريين تجثو الأحلام غير عابئة بالزمن، تبدو كأنها تراقب ملامحهم وهي تتحسس قبح ذاتها بعد أن خذلتهم فتحولوا لجمالٍ خالدٍ يسكن جبين الوطن المهاجر في خطواتنا المنتظرة ملامحنا أن تعود، والوقت يمرُّ أمامهم وهو يتكئ على بسماتهم التي كم كانت طاعنةً في الشُّموخ، وكل شيء بعدهم يبدو مُراً لا قيمة له ، سوى النصر يوماً.

في اليوم التَّالي حين خرجنا للحمامات مساءً، قرأ المساعد سبعةَ أرقام كنت واحداً منها، بقينا خارج الزنزانة ولم نعد إليها، سمعنا أحدهم يقول هؤلاء إلى التَّحقيق، وتفرقت أجزاؤنا من الخوف فها هي رحلة الموت قد بدأت مرة أخرى، وصراخُ دروب الوجع ينخز الآتي ونحن في خشوع الانتظار

بعض خيالات وأسماء مكتوبة على أوراق رسموا عليها أماكن المقابر قبل الموت الرَّديء، فُصِلنا عن بقية رفاقنا، ووقفنا ووجوهنا تحضن رائحة الجدران، جاء أحدهم وكبَّلَ أيدينا للوراء وعصبَ عيوننا، آنذاك كان كل الذاهبين للتحقيق لا يعودون منه مرةً أخرى، وفي كل مرة أردت أن أكتب عن مشاعري حين عرفت أننا ذاهبون للتحقيق مباشرةً وأننا لن نعود لزنزانتنا أجد أن الكلمات لا تشبه حقيقة ما أريد وصفه.

فالشعورُ بالحنين لمكان لم يَذق المرء فيه سوى العذاب يبدو غريباً جداً، وإن أفظع أنواع الأكاذيب هي تلك التَّمتمات التي نهمس بها لأنفسنا سراً لكي نقنع ذواتنا أن الحنين الذي تملكنا للتو ليس إلا شعور عابراً ولن يسكن في دواخلنا زمناً طويلاً، لقد كنت محتاجاً للبكاء إذ عرفتُ أنني لن أرى زنزانتنا مرة أخرى تلك الليلة، بكاءٌ أكون قادراً فيه على رفع صوتي دون خوف، والحقيقة أن الحزن لم يكن متأتياً من فراق الجداران التي لازالت حتى هذه اللحظة تختزن بعضاً من لحمنا، لقد كان خريف الحنين ذاك متأتياً من تلك النظرات المختنقة التي كنا نتبادلها في تيك الليالي هناك، ومن تيك الأحاديث المكتومة التي كانت تختصر عقوداً من القهر حين كانت تتوقف الكلمات لتكمل الدموع بقية الحديث، لقد كان الوداع هو الحدث الأبرز الذي كنا نمارسه كل يوم، نودع جثث من استشهدوا، ثم نودع بعضنا حين يقرؤون أرقام من سيحولونهم إلى فروع أخرى، ثم نودع من يعود من التَّحقيق وهو شبه ميت تتردد فيه روح متعبة أكثر من جسده.

غلَّ المساعد المسخ أقدامنا جميعاً بسلسلة طويلة واحدة فعرفنا أننا

سنمشي وبهذا سنتجرَّع في هذه الليلة من العذاب ما سيزيد عدد الثَّكالى، كنا حفاةً كل الوقت، صعدنا الدرج ونحن نمسك بعضنا بعضاً والشَّتم والكفر لا يتوقف أبداً، ومن تنزلق رجله لن يقوم بعدها، بل سيقتلونه بمكانه، كانوا أكثر من ثلاثة سجانين معنا.

وما إن خطونا أول خطوة خارج المبنى حتى أغرقنا المطر وبدأوا يضربوننا بالكبال كي نبقى في خطٍ واحدٍ، ويحذروننا من أنَّ من يسقط أرضاً سيموت بمكانه، وبدأنا نمشي وهم يوجهوننا يميناً وشمالاً، مشينا مدة نصف ساعة تقريباً على أرض مرصوفة، ثم أمرونا بالتوقف وجاء صوت أحدهم غليظاً قبيحاً، بدأ أول خطابه بالكُفر والشَّتائم فأخبرنا أننا جميعاً من نسل مومسات، وأنه متأكد من أننا لسنا سوريين، وأن كل واحد منا له أصول من قارات مختلفة وأننا حتى في تلك الدول ننتمي لعائلات يمتهنون العهر المأجور.

ثم أمرنا أن نستلقي على بطوننا وألا نقوم بأي حركةٍ، كنت تواقاً لأرى أي شيء، الهزيمة كانت تتحسس أنفاسي المرتحلة حين كنا نموت هناك بصمت، لكن غيابنا سيكون لحساب حضورهم وهذا بحد ذاته عراء غائر.

بعد أن هدأت أصواتهم بدأت أحاول إبعاد العصبة السَّوداء عن عيني، ضغطت بكل قوتي على الأرض وشددت رأسي للأسفل قليلاً متمنياً أن يتكمش القماش المبلل بشقوق البلاط فتنزاح قليلاً عن عيني تلك الغمامة السَّوداء التي رافقتني ليالٍ كثيرة، حاولت أكثر من عشرين مرة، أخيراً علقت

القماشة بأحد الأخاديد، وتسرب الضوء الخافت إلى عيني جاعلاً الأرض المغطاة بالماء تبدو كأنها سطح بحيرة ونحن فوقها مجرد رسومٍ محفورة على ظلال الأمنيات الراحلة نحو هتافاتنا الأولى. وبدت لي الأرض نضرةً جداً، وبعيداً هناك رأيت شجرةً تقفُ عاريةً مثلنا تنتظر الربيع حتى ترتدي الدفء من جديد، واعتراني شعورٌ قصيٌّ بالحنين إليها ربما لأنها الشيء الوحيد الذي تصورت أنه لا يمكن أن يكون وسيلةً للعذاب، أغصانها اتسقت كأنها أعناق مآذن تنتظر فجر الصَّلاة المنسية تحت صليل الظلم المخبوء هناك.

قطرات المطر التي كانت تتساقط على وجهي تجعلني أغمض عيني ونحن على بعد أمتار فقط من مدخلِ مبنىً كبير يرتفع بضع درجات عن الأرض التي نفترشها، المعتقلين الذين كانوا عن يمني ساكنون تماماً كأنهم أموات، الصَّوت الوحيد الذي كنت أسمعه كان أنيناً متقطعاً يَصدُرُ من هنا وهناك والمعتقلون الذين مروا من فوقنا بعد أن استلقينا كانوا مُمددين على بُعد عشرة أمتار منَّا، وبينهم طفل صغير يرتجف ويبكي، كنا نبول على أنفسنا عدةَ مراتٍ ونحن مستلقون هناك عراةً حتى من أصواتنا.

مضت السَّاعات مبللةً بفصول الريبة والانتظار، قبيل الصباح بقليل جاءت أصواتهم كنباح الكلاب الضَّالة يأمروننا بالوقوف، وبدأت الكبال تنهش اللحوم التي تصرخ من الألم في صباحات ارتجاف المُهج تلك، دخلنا المبنى الجديد، أوقفونا ووجوهنا للحائط كالمعتاد، نزعوا عن أعيننا العُصب السَّوداء واختفى بعضنا في أروقة المبنى لا نعرف أين اقتادوهم، وبقيتُ مع

ثلة من المعتقلين منتصبين في الممر.

وراح صفير المنايا يرسمُ هولَ المشهد الآتي ، وملائكة السَّماء وقفت في قاع الصمت تنصتُ للحدث المرصود، فالطفل الذي كان مستلقياً معنا بدا صوت نشيجيه يغمر كل شيء، وهناك مرَّت من خلفنا مجموعة جديدة من المعتقلين كان بينهم رجلٌ في أواخر الخمسينات محني الظهر نحيلاً يحسبه الناظر إليه خيالاً يصوِّب عينيه باتجاه الطفل الذي كان ما يزال يرتجف بيننا، ثم جاءت صرخته حافية العويل، مد يده وأراد أن يخطو باتجاه الطفلِ وهو يصرخ: كنان. ثم نظر بوجه السَّجان وهو يرتجف ويقول: سيدي هذا كنان ولدي كنان حبيبي كنان. الطفل ارتجَّ كأن صاعقةً ضربته وراح ينادي: أبي أبي، وهو ينتفض ويبكي ثم ركض بكل قوته باتجاه والده لكن كبل الدَّبابة كان أسرع إلى جسده الصغير وقبل أن يقطع الأمتار القليلة كان السَّجان المسخ قد هوى بكبله على جبينه فرده إلى قرب الحائط الذي بدا مدهوشاً مما يفعله البشر.

بكى الطفل كما تبكي المعابد المغتصَبة، وهو يشاهد السَّجان الذي وقف فوق أبيه وراح يُحرق جسده الذي لم يبق فيه شيء ليحترق، والأب رغم كل ذاك لم يتوقف لمحةً واحدة عن ذكر ولده وهو ينظر إليه من بين السِّياط التي جعلته يتكوم على بعضه وهو يصرخ مستجيراً بكل ما عرفته البشرية من آلهه، لم يتركه السَّجان حتى فقد وعيه، وولده كان يُصدرُ أصواتاً أبعد من البكاء، تيك الرعشات التي تخلل البكاء فتثقب أعماق الروح التي لا تشفى جراحها أبداً، كان الطفل ينظر إلينا لعلنا نفعل شيئاً وهو يقول أبي

ويشير بيده نحو والده ونحن غرق في نحيب تلال الخذلان التي ذابت فينا فأحالتنا بعض خيالاتٍ كل مواهيها أن ترتجف من البكاء.

اقتادتنا سياطهم إلى زاويةٍ نَمَتْ على جدرانها حشائش رماديةٌ تنبعثُ منها رائحة الجثث المنتظرة ظلام القبر المفقود، كنت على يمين والد الطفل بينما يفصلني عن الطفل الذي سيحمل نصف عذاب أهل الأرض بعد قليل معتقلٌ واحد، كانوا خلفنا تماماً لا يفصلنا عنهم سوى أمتار قليلة، بدأوا يتحدثون عن أشياء مختلفةً، وكان هناك صوت موقدٍ صغير قريب منّا وَضَعَ عليه أحدهم إبريق ماءٍ.

الصوت الذي خَطَبَ فينا ليلاً هو ذاته من يوزع الموت خلفنا، جلسَ على كرسيٍ وُضِعَ له وراح ينفث دخان نرجيلةٍ يشربها فتبدو نقاط الوقت أكثر شناعةً وهم يشتهون الحياة من خلال ملامح العذاب، أمسك أحدهم والد الطفل وسأله عن اسمه، وما إن أجابه حتى راح يدقّ رأسه بالجدار ثم جروه ورموه عند قدمي ذاك الشّيطان وخاطبه أحدهم هذا هو يا سيدي.

ورغم كل الجراح والعذابات التي كانت تدثّر ذاك الأبَ المفجوع وضع ذاك الدنيء حذاءه على رأسه وهو يقول له: اليوم رأيت زوجتك في التّحقيق، فبكى الرجل أكثر مما كان يفعل، كانت الهزيمة قد وصلت قعرها في داخله، لم يكفهم كل ذلك، تقدمَ أحد السّجانين وركل الطفل مخاطباً صاحب الصوت ذاته: وهذا ولده سيدي. فأجابه: أعرف، ثم علا صوته وهو يقول: اسمعوا أريد أن يصل صوته إلى أمه في المبنى القديم. فراحوا

يضحكون وبدت خيالاتهم على الجدران وهم يتنافسون على افتراس بقية أبٍ وطفلٍ يطلُّ من شرفات الموت كأنها صليل السفاحِ الذي أتى بهم إلى هذه الأرض.

وجاءت سكرة الأسى حين زعقوا فينا كي نتخذ حال السَّجود على الأرض، ثم تقدم أحدهم ووقف فوق رأس الطفل وظهره للحائط وشدَّ على رأس الطفل فثبتهُ تماماً بين قدميه بينما أبى الدهر إلا أن يطعن رجاء صلواتنا حين أتى أحد المسوخ وهو يحمل فُحشَ الكون كله وأسقط جمرتين من جمرات النرجيلة المشتعلة على ظهر الطفل فجأر الطفل صرخةً مزقت ثغر الصَّمت، وصاح حتى ظننتُ أن سقف الكون سيسقط فوقنا، وأخذَ لحم الطفل يحترق ويصدر ذاك النَّصيص الذي يعلو حين يشوى اللحم، والأب وصل صراخه عنان السَّماء بينما انسحبت مدن الضَّلال واختفت خلف بكائنا المقتول.

تبرَّز الطفل على نفسه وبال عدة مرات وهو يتقوس ثم انتفض فأوقع المسخ الذي يمسك رأسه فوقف اللعين، وركله بحذائه العسكري على رأسه عدة مرات حتى غطت الدماء كل ملامحه، بينما راح أحدهم يمزق جسد والده بكبل الدَّبابة ويحقنه بعذاب لا تطاله حجبُ الغيب، والأب يستغيث ويبكي بكاء من لا ناصر له ولا معين، ويصرخ: كُرمى لله اتركوا ولدي، كُرمى للرسول، ولدي كنان كنان آه يا كنان يا حبيبي. وكنان يشقُّ الجدران بصراخه ونحيبه المرصوف على ذراع الوطن .

تضاحكَ أحدهم وقال سيدي هذا الصَّغير احترق، فأجابه المسخ اللعين خذ وأطفئهُ، وأعطاه إبريق الماء الذي يغلي فوق الموقد فصبه المسخ الثَّاني على ظهر الطفل دفعةً واحدة، وعاد الطفلُ على وقع عذاب الحريق يعيد ترتيب الكون بنحيبه وصراخه وتلعثمت محاريب المساجد أمام طفلٍ يحرقونه بالجمر ويطفؤونه بالماء الذي يفور، وكل جريرته أنه سوريٌّ فقط، وأخذ ينتفض ويبكي بظهره المسلوخ وجلده المحترق ثم أُغمي عليه وغاب تماماً في صخب وحدتنا هناك.

حماةُ الوطن يحرقون جثثَ أطفالنا خوفاً من هنافاتنا الشَّاهدةِ على يقظة المصير، غابات من سهاد تنمو فوق تراث من أنين، كيف يمكن لنا أن نرضى بالحياة وهم بيننا، كيف يمكن لأي إنسان في هذا الكون كله أي يحرق طفلاً أمام عيني أبيه، أي حقدٍ هذا الذي يختزنونه في صدورهم، من علَّمهم كل هذا!

بقينا هناك ساعاتٍ قبل أن يحشرونا في الزنازين، وجاء نصفنا في زنزانة واحدةٍ وكان بيننا الطفل ووالده، وبمجرد أن أغلقوا الباب راح الأب يزحف نحو طفله ويبكي وينتحب أمسك قدمه وراح يقبّلها ويقول كنان: يا دمي يا بعضي يا قلبي رد عليَّ يا كنان، أحرقوك يا ولدي ليتني متُّ قبل هذا. وتساقطت دموع القضبان وهي تُهَدهُ للأب المكلوم.

أجلسناه على الحائط ووضع طفله بين يديه وهو يمسح الدمَ الذي غطى وجهه بيديه، والطفل تجمع كل جلد ظهره في حضن أبيه وهو فاقد

للوعي بين الموت والحياة، جاء أحدهم بملء غطاء القارورة ماء وسقى الطفل فتقيأ كل ما في معدته وأبوه يقبِّله ويشمُه ويبكي، في مساء ذاك اليوم بدأ الطفل يصحو، وفي أول لمحة فتح فيها عينيه وشاهد أباه بكى وشهق وتقيأ وهو ينزف من رأسه وأنفه وقدمه، نظر إليه والده وقال: كنان كيف أنت كنان يا ولدي يا ضوء عيني آه يا حبيبي. والطفل يغلق عينيه ويفتحها، بعد ساعات رجفَ عدة مرات ثم ازادت وتيرة أنفاسه كأنه يختنق، تسارعت قدماه، حاولنا فعل أي شيءٍ، لكنه بعد قليلٍ أسلم الروح ومضى إلى أمه المُعلقةِ بسقوف ظلمهم البعيد، وعَظُمَ البكاء في تيك السَّاعة حتى جفت الحياة.

وبرزت عروق الرزيَّة أكثر عندما رفض الأب في المساء أن يُعطيهم جثة ولده، فما كان من السَّجان إلا أن انهال عليه بالكبل يأكل بعض لحمه وهو متمسكٌ بجسد ولده ويصرخ: إلى أين تأخذونه؟ ولدي كنان ولدي. حتى بدأ يغيب عن الوعي من شدة الضَّربات على رأسه، وصار يسبح في دمه وتركَ جثةَ ولده تحت وقعِ الألم والشتات، سحبه بعض المعتقلين داخل الزنزانة، كي لا يقتله المساعد الخائن، وتتابعت السَّاعات كأنها لا تمضي هناك، حتى فتحوا باب الزنزانة ونادوا على خمسة معتقلين للتحقيق كنت واحداً منهم، وبدا لي الموت حينها حلماً لا يُطال، التَّحقيق ثانيةً.. أنا لا أحتمل صفعةً واحدة ، رجلي مصابةٌ وجسدي هزيلٌ جداً ولا أستطيع رفع قدمي، بالكاد أخطو على الأرض.

شدَّ المساعد المسخ العصبة السَّوداء على عينيّ وجرّني من شعري

ومشينا، كلُّ شيءٍ يتكرر، الأصوات ذاتها، الخطوات ذاتها، الخوف ذاته، الشَّيء الوحيد الذي تغير هو الرغبة بالموت أكثر. أوقفوني ووجهي للحائط، وها أنا من جديد على موعدٍ مع انتظار العذاب والزَّوال فيه، وتعدو في داخلي أخيلةُ الأسئلة المشوهة، تُرى كيف سألامس الألم هذه المرة، يتضخمون في داخلي وتبدو خطواتهم كأنها تطأ الكون كله، ما الذي سيضربونني به، هل ستكون هذه آخر مرةٍ وأرحل بعدها ليرى رفاقي جثتي أخيراً، هل سيقتلعون عينيَّ، ولم كل هذا الشوق بغتةً لطفلتيَّ وهنا أمام بوابة الدم الهارب من حُمرته، وريقاتُ الحزن التي تتساقط هل يراها أحدٌ غيري، آه هل جننت فأمسيت أهذي، خطرّ لي أن أركض باتجاهٍ آخر، لكنهم في كل مكان في هذا الكون، أريد أن أتحرر من خوفي السَّحيق هذا، ليس بأن أتخلص منه بل بأن أتخلى عنه هكذا كرجل مُقعدٍ وصل إلى الفضاء ولم يعد بحاجةٍ لقدميه.

أخرجني من بين أشباح أسئلتي وقع الكبل الذي نهشَ فخذيَّ، أسقطوني إلى الأرض جاعلين ظهري عليها، بينما وضعَ أحدهم حذاءه على صدري وأنا أشعر بألم شديد زاد ظمأي وارتعاشي الجريح، وجاء صوت المحقق مختلفاً هذه المرة وتكررت الأسئلة ذاتها دفعة واحدة، والخوف هو بُعد الدقائق وبحتها وأنا مأخوذٌ بكل ذرة مني إلى وقع خطواته على الأرض ونبرة صوته، وأتخيل ملامحه وأنتظر الثَّواني الآتية لعله لا يغضب لعله لا يأمرهم أن يبدؤوا بتعذيبي.

أقرأ آياتٍ من القرآن، ثم أفقد كل إيماني دفعةً واحدة، أعود لأستنجد

بالله الذي لا يدخل أفرع الأمن، ثم أستغفر الله مما أفكر فيه، ثم ألعن كل شيء مرةً أخرى، ومع أول كلماتٍ نطقت بها وأنا أقسم له أني لا أعرف، سمعت صوت المحقق يقول: غير صحيح، أريد أن يسمع صوته كل أهل الأرض.

وما إن أنهى عبارته حتى قفز أحدهم وسقط برجليه على معدتي وأخذ كبلَ الدَّبابة وبدأ يَكشُطُ فيه لحم بطني ويحرقُ جلدَ معدتي وقدميَّ، والآخر راح يمزق صدري ورقبتي بكبلٍ كهربائي له نتوءات حديدةٌ حادةٌ كانت تنغرس في لحمي فتجعل ألم الحرق عشرةَ أضعاف.

وأخذت ضرباتهم تتوحد في وقعها على جسدي وتعاظم الألم وانبرى في داخلي حتى كأن أحداً يسحب نقيَّ عظامي وينبش أحشائي بسكين، فيما شعرت أنني أنسلخ عن جسدي وأن أمعائي خرجت تعدو نحو زنزانتنا، تقيأتُ ولم أستطع إخراج كل ما فاض من معدتي على الأرض فاختنقتُ ببعضه وأنا أبكي وأصرخ وأجأر وأتوسل وأحاول أن أتقي ضرباتهم على جسدي ببعض جسدي الآخر، وتستطيل الثَّواني، وتمسي اللمحة الواحدة تعادل العمر كله، تبوَّلت على ذاتي مرتين وبكيت حتى اختنقتُ وتكالب الألم حتى مزقني، كان لدي دُملةٌ في ساقي تختبئ تحتها حفرةٌ أكلها الجربُ الذي تعودت على مشاركته لجسدي، وصادف أن وقعَ الكبلُ منتصف الدُّملة فانفجرت واقتلعت معها أوردة قلبي، ورحتُ أجأر، فأعادوا الضَّرب في ذات المكان، فوصل الكبل اللحمَ الحي وراح الألم الفاحش يجعلني أصرخ من كلية خليةٍ مني وأنا أبكي بكاء أهل القبور، فركلني المحقق على طرف عيني

وكأنه كسر جمجمتي وفقدت البصر بعيني اليمنى وهدأتُ تماماً.

رموني في زنزانة بعيدة كان فيها من الجثث أضعاف ما فيها من الأحياء، الجثة التي بقربي كانت قد انتفخت وبدأت بالتفسخ، وأنا أسمع بعض الأنّات التي كانت تصلني من أشخاص كانوا عالقين بين الجثث وهم ينزفون ويحتضرون لساعات بعد جلسات التّحقيق، والأرضُ كانت مغطاة بدم متجمدٍ وبعض القيئ والكثير من البول، وصَغُرَ كل شيء في داخلي ورحتُ أودع كل من أحبهم وأنا بالكاد أفتح عينيّ وأنظر في وجه الجثة الثّانية وخُيِّل إليّ أنها تنظر نحوي، كانت لشابٍ صغير لم يُتمّ الخامسة عشرة، وبدأ كل شيء يدور ويدور، وأنا سعيدٌ بأني لا أشعر بأي ألم جديد، ودخلت في نفق الموت العميق ورحت أنظر خلفي وأرى هتافاتنا التي علمتني أن الإنسان يولد مرتين ثم انطفأ كل شيء.

ولست أدري كم مضى عليّ في تلك الغرفة حين بدأت أصحو على جيوش من التّوجّع تلوك الثّواني بتأنٍ غير عابئ بموتي في كل لمحة عشرات المرات، جرّني المساعد وهو يطلقُ السّباب والشّتائم وأنا رحت أدرك رويداً رويداً أين أنا، صفعني عدّة مرات ثم ضربني بالكبل وصرخ بي كي أنهض، أعانني معتقلٌ بقربي على الوقوف، ربط يديّ، علقني بالسّقف ومضى.

في مساء اليوم التّالي كنت على موعدٍ مع لعنة الطين، حيث شابت الأيام وتقوست الليالي وبات الموت نعيماً يتعالى على أجسادنا المُشرحة، ورأيت ما فعلوه بذاك الضابط المنشق، كانت الأصفاد قد دخلت في لحم

يدي عندما أدخلوا ذاك الطَّيار الأربعيني عارياً من كل شيء، علقوه بالسَّقف من رجليه على غير عادتهم كان يرتعد بشده لقد أدرك بحكم أنه ضابط ما الذي سيفعلونه به، بعد قليل دخل اثنان منهم يحملان كبلين للدبابات وتبعهم مسخٌ منهم يحمل قطعةً من سلك معدني شائك من النوع الذي تستعمله الدُّول على حدودها.

أمسكه أحدهم من شعره وقال له: اليوم سترى الله جهرةً، وسيسمعُ صوتَك هو وكلُّ ملائكته.

كانت عيونه تبكي دون أن يحركَ ملامح وجه، يبكي بكبرياء لم أرى مثله في كل لحظات اللقاء مع الموت، كنت عاجزاً لدرجة أني لم أستطع حتى البكاء معه، أمسك المساعد السِّلك الشَّائك وبدأ يلفهُ حول كبل الدَّبابة حتى غطَّاه بأكمله فأمسى وجه الكبل مع الأسلاك الشَّائكة كنفحة الموت.

لم أكن قد رأيت من قبلُ آلة لحام الحديد لكني رأيت معتقلين أُحرِقوا بها، وفي تيك الليلة النكراء حين دخل أحدهم وأدخلها معه ووصلها بالكهرباء، بدأت أرتجف، وكانت حركتي تزيد ألمي لأن الأصفاد كانت تحتك بلحم يديَّ، كبلوا له يديه للخلف، وهوتْ أول ضربةٍ بالكبل المضفور بالسِّلك الشَّائك على رقبته، فزعق صوتاً كأن الأرض قد صرخت معه. وراحوا يكثرون عليه الكبال، وفي كل ضربة كانت تقع على ظهره كانت الأشواك الحديدية تنغرس بجسده فيشدها المساعد المسخ مقتلعاً معها قطعاً من لحمه الطَّاهر لتتناثر في الهواء.

وعندما كان الكبل ذو الأسلاك الشائكة يصادف معدته كانت الأشواك الحديدة تغوص بلحمه لدرجة أن المساعد كان يشدها مرتين لتخرج حاملةً معها مزعاً كبيرة من جسده الذي كان كالوطن يعطيهم دمه وأجزاءه وهم يقطّعونه بأيديهم.

اقترب المساعد الثَّاني وطعنه بآلة لحام الحديد فثقب له كتفه كله فبدأ يتقيأ دماً، وكأن مشهد الدم كان يغريهم فزادوا عليه بالكبال على كل أنحاء جسده وهو يصرخ: يا الله، يا الله، مالي سواك يا الله، يا الله، ساعدني يا رب.. ولازلت أسمع صوته حتى هذه اللحظة، اقترب المسخ مرةً أخرى بآلة اللِحام وطعنه بكتفه الثَّاني بقضيب اللحام فثقب له كتفه الآخر، فأغمي عليه وصمت تماماً، ذهب أحدهم وعاد ومعه عصا الكهرباء، كان المسؤول عن التَّعذيب من القتلة المتمرسين، رفع صوته وقال لهم: أيقظوه، أريده أن يرى الله اليوم، لن يخرج من هنا إلاَّ إلى قبره.

نبح المسخُ الذي أمسك عصا الكهرباء: أريد أن أجربها على هذا يا سيدي. كنت أقرب معتقل له، نظر في عيني وقال: إن تقيَّأت ولوَّثت الأرض سأعدمكَ فوراً، كلما ذهبت وعدت وجدتك حياً، متى ستموت؟!

كنت أنتفض وأنا معلق وأرجوه أن لا يفعل، لم أترك شيئاً لم أتوسل به له، لكن القدر أبى إلا أن أواجه مصيري في ذاك اليوم. ضحك واقترب مني، نظر في عينيَّ وصعقني بها في ركبتيَّ، أردت أن أصرخ لكن شيئاً ما شَلَّ فمي، شعرت كأن أحداً ما أدخل سكيناً في صُلبي، وكأن قلبي قد انفجر

وتجمدت عيناي ولم أعد أرى بهما، كانت الثَّواني تمر كأنها سنوات.

وجاء الألم أقسى من الجوع وأعمق من الطعن وأبعد بكثير من قدرة البكاء، يا وطناً يحكمه الغرباء. شهقت ولم أعد أقوى على التَّنفس، فأخذ يصفعني على وجهي، حتى عدت وشهقت من جديد، سمعته يقول لي انظر هنا انظر هنا، لم أكن أراه حتى أنظر إليه، عميّت عيناي من هول الرهبة، كنت التفت إلى الجهة الخطأ، فيصحح لي جهة رأسي بالكبل الذي أمسكه بيده الأخرى، سألني: ما اسمك ؟ ما اسمك يا ابن العاهرة؟ قلت له: أنا الرقم 1646 سيدي. قال: أعرف لكن قل ما اسمك؟ قلت له: وائل، وائل الزهراوي سيدي. ثم أمسك الكبل الذي يَقطرُ من دم المقدَّم ومسحهُ برأسي وهو يقول : كلكم تحملون دماءً ملوثة قذرةً كأنتم.

وفي عمق ذاك الألم كنت أتساءل عما يشعر به ذاك الضابط الأبيُّ وربع لحم جسده قد سقط تحت رأسه، سكبوا على المقدَّم وعاءً من الماء، وما إن بدأ يصحو حتى صعقه المسخ بعصى الكهرباء في ظهره الذي لم يبقَ فيه جلد يغطي عموده الفقري، وزادوا عليه بكبل الدَّبابة، وأخذوا يضربونه على رأسه، والكبل الملفوف بالأسلاك الشائكة اقتلع نصف فروة جمجمته.

يا كلّ بقع الدم اصرخي، أيتها الجدران تكلمي، أخبري كل هذا العالم ماذا جرى هناك، وماذا فعلوا بنا، يا وطناً سقيتك من دمي وأعطيتك من لحمي وتقاسموك كالغنيمة، يا هتافاتنا التي كنت أرى فيها الحرية والإباء أين اختفيت أين؟ وما لن أنساه أبداً ، كيف حاول في آخر لحظات حياته أن

يثني جسده ويصل للأصفاد التي كان معلقاً بها، كانت عيناه قد عميتا وورمتا لدرجة لا توصف، ومع ذلك يريد أن ينجو، بصق نصف أضراسه تحت رأسه، يحاول أن يقاوم الموت القادم لا محاله ولكن هيهات هيهات، ولات حين مناص.

ثقبوا له فخذه وانغرس قضيب اللحام في عظامه وأثقلوه بالكبل ذو السّلك الشائك في أماكن الثُّقوب وعلى رأسه، حتى غابت كل ملامحه كما يغيب الوطن خلف أحقاب القهر، وكما يغيب الضوء عندما ينتصر الظَّلام، وكما كنت أستسلم للموت وأدعوه أن يأخذني من هناك ويأبى.

ورأيته كيف كان يُمطر الأرض دماً كأنه ينتقم من ظلمهم بنزفه، وشعرت أن الكون كله يمطر دماً هناك، وأن بقية حياتي لن تستطيع أن تكون خارج جدران تلك الزنزانة حتى وإن خرجتُ طالما هؤلاء على قيد الحياة.

المقدم الطيار 31/20، هذا رقمه واسمه وتاريخه وبطولاته وأطفاله وحياته، صرخ بكل قوّته ثم أسلم الروح هناك، هناك حيث كنا نحب بعضنا لدرجة أننا ندفن معاً في مقابر جماعيه. بعد ساعه كان دمه قد ملأ الغرفة ، فكوا أصفاده فوقع على الأرض جثةً دون حركة، وسحبوه من رجليه، وقتامة الوقت كانت تجرع الصخب الذي يتقطر ظلالاً لا ينتهي ارتعادها.

في صباح اليوم التّالي أنزلوني، لم أكن أشعر بيدي ولا أستطيع التّحكم

بكتفيَّ، لبست سروالي الداخلي بعد سبعة عشر يوماً قضيتها عارياً، بقيت أياماً مُلقى في غرفة المرضى أزحف زحفاً، وأعد الجثث وأمسك أيدي من يحتضرون، وأبكي معهم كلما ما استطعت، وفي غمرة كل ذلك كنت أفكر في تلك اللحظة البعيدة التي سأجلس فيها لأكتب كل شيء فعلوه، وأي رثاءٍ يليق بوطن، وأي حزنٍ يتوسد صدر الكون سَيُكتب، وكيف تتجرأ اللغات أن تحمل عذابات من أوجدوها، يا كل أولئك الخالدين.

مضى أسبوعان وأنا أحبو في زنزانة الموتى، حيث الأسى ينصتُ لوجيس الظُّلمة، في كل مساءٍ يُلقون فيها ما أنتجوه بغرف التَّحقيق، يرمون أجساداً ممزقةً تفضح كهولة الجراح، وتنكأ ضرعَ العذاب.

لم تكن غايتهم التَّحقيق، كانوا يعرفون كل شيء يمكن أن نخبرهم إياه، إنهم ينتقمون من تمردنا عليهم فقط، إنها أقبية تحوي أدغالاً ليس لها حدود من الألم، لم تكن للتحقيق يوماً، غُرفُ موتٍ يظهرون فيها أعمق وجوههم التي تعكس حقيقتهم المُحنَّاة بالدم المُسفوحِ تحت مقصلة السُّلطة حين تختلط وجوه القتلى ببعضها، حيث لا يملكون في أعماقهم سوى هذا كي يستمروا.

ورغم كل الهلاك المُعْتم الجنبات في سراديب الضَّلال تلك، توجدُ في كلِ زنزانةٍ ثُلةٌ من الأنبياء الذين هُم بقيةُ الخير في هذا الكون، يُعِينون المصابين ويحملون المُقعدين ويَفتَدون الضُّعفاء بأجسادهم، ومن بين كل أولئك الأبطال الذين رأيتهم هناك، أسَرَ قلبي شابٌ لم يكمل الثَّانية والعشرين وهو يحملني أسبوعاً كاملاً للمراحيض، في كل صباحٍ يجثو على ركبتيه يمسكني من يديَّ ثم يُلقي بي على ظهره، وينهض كالجبلِ الأشم،

شهور الجوع لم تؤثر به كبقية المعتقلين، كان فولاذي الجسد، صنديداً حقيقياً، إنه حنّا.

حنّا، الذي يقرأ معنا الفاتحة على أرواح الشُّهداء، ثم يرسم الصليب على صدرهِ. إن البشر يسفكون الدِّماء باسم الدين لأجل الحياة فقط، إنه حنّا، ذاك الفارس الذي كان يقول للمعتقلين المحتضرين تشاهدوا، تشاهدوا، وهو يذكر يَسوع، يبيح كل شيء لأجل الوطن، ويضحي بكل شيء لأجل الآخرين.

حَمَلَ عشرات المعتقلين على ظهره إلى المراحيض، والمُساعد المسخ كان يقول له : ستسقط يوماً يا حنّا، منذ أيامٍ قليلة خرج حنّا يحمل معتقلاً كهلاً، وفي طريق العودة انزلقت رجله وسقط بين أقدامهم. كنت على بعد خطوتين منه، تجمّدنا جميعاً وحانت ساعة الموت.

اجتمع المسعورون حوله، وهم يضحكون ويقولون: وقعت أخيراً يا حنّا.

وهوى قضيب الحديد على أُذنه كي لا يحاول النهوض، ثم علا الكُفر والصِّياح وهم يُحرقونه بالكبال.

شكلوا دائرةً حوله، تركوا كل شيء واتفقوا على قتله في ذاك الصباح، ضربوه عدة ضربات بكبل الطّائرات على رأسه فبدأ يغيب عن الوعي، ثم صاح أحدهم انشروه وسنرى كيف سيكون رجلاً.

وتلك الكلمة تحمل قسوة المقصلة، حيث كانت هناك أنابيب حديدة تخرج من أحد جدران الممر لتدخل في الجدار المقابل لها، كّنا نحسبُها أنابيب للصرف الصحي، رفعوا حنًا إليها، ثم فتحوا له يديه وربطوهما كل واحدةٍ باتجاه على شكلِ الصليب، ثم شدُّوا الجنازير حتى التصقت يداه والتفتا تماماً حول الأنبوب، ثم قفلوا الأصفاد بين يديه وبين الأنبوب مرةً أخرى وبهذا أمسى ملتحماً تماماً به، ثم فجأةً تركوه يلوح في الهواء، وراحت الجدران تتشققُ من عويل صراخه، فالأنبوب يحتكُّ بقوَّة هائلةٍ بلحم إبطيه لأنَّه أمسى معلقاً من مفاصل أكتافه فقط، فنيفرمُ لحم إبطيه وينكشطُ جِلدُه تحت ضغط وزن جسده وهو يتأرجح في الهواء.

لم يكن ذاك كل شيء! أخذوا يضربونه بالكبال والقضبان الحديدة على بطنه وأفخاذه ويتعمدون إصابته على أعضاءه التّناسلية، وبين كل دقيقة وأخرى يدفعونه كي يلوح أكثر في الهواء فتتمزق دفعة جديدةٌ من لحمٍ إبطيه حتى وصلت إلى مفاصله، كان يقصدون بالنشر تعليق المُعتقل على الشيء كالثّياب التي تُعلّق كي تجف.

سمعنا جميعاً صوت تكسُّر عظامه، وانفصلت أكتافه عن جسده وهو يئن وصدى بكاءه يهتك أهلّةَ المآذن ووجوهَ الصُّلبان، والوطن يرنو إليه ويمسح دموعه الحمراء، ضربوه بالقضبان الحديدة على رأسه حتى أغرق دمه أماكن خطواته وهو يعدو حاملاً أوجاع الآخرين.

في صباح اليوم التّالي كان حنًا ما يزال معلقاً هناك وميتاً.. حين مررت

بقربه شعرتُ أن مَسيحاً جديداً صُلِبَ هناك، ليس ليمحو عذابات البشرية، بل لأجل الحرية. استشهد حنَّا، القديس حنَّا، وسيبقى اسمه نصل الإباء الذي يقطُرُ شرفاً مادام الوطن هناك، والأوطان لا تزول، نحن فقط من يفعل ذلك.

في مساء ذات اليوم رموا على غير عادتهم بينا شاباً لم يتجاوز الثَّلاثين كما هو بأغلاله وفمه المُكمم، كان ذاهلاً عن كل ما نحن فيه غائباً في الغياب، مبحراً في داخله يبحثُ عما لا يملكه أحدٌ بيننا، والدَّم يتدفق من فمه كشلال صغير لوَّنَ كل جسده بالأحمر، وجهه الشاحب ينبئ عن موته القريب.

بعد أن أغلقوا الباب نظر في أعيننا جميعاً ثم هوى على الأرض دفعة واحدة، كان هول ما فعلوه به أكبر من قدرة اللغات، لقد قتلوا حقاً في صدره كل ما كان يخفيه، دفنوا صرخاته في داخله، نحن يا طيور السَّماء أبناء الحرية، نُذبح لأننا هتفنا، نُذبح لأننا أصحاب القضية . راح الدم من شدة نزفه يرسم البقعة الحمراء تحت جسده بينما تجمعنا حوله كأطفالٍ تائهين ننظر إليه كأننا نحن المكممين، نعاين في كل مرةٍ عذاباً جديداً يلعق هزائمنا الممزقة السُّطور، يكسر كل ملامحنا ويلقي بنا فتاتاً على أرصفة الصرخات.

حين رُحنا ننزع عن فمه كمامته المدماة، بدا النَّشيج مشنوقاً بآثام العبرات وراحت مقاصد الدروب تصلبنا باتجاهات الصِّياح، وما إن رفعنا الكمامة عن فمه حتى صرخنا وارتددنا للخلف كأن صاعقةً ضربتنا جميعاً.

رباه، رباه! ما كل هذا؟ رباه! لقد ذاق هذا المسكين الموت ألف مرةٍ قبل أن يموت، كانوا قد وصلوا من إحالات الشياطين إلى طقوس لم تحدث في كل صفحات التَّاريخ.

ذاك الشَّاب كان يطلُّ من فمه سلكٌ شائك كأنه لسانه المخلوق معه، منظره الفظيع أبكانا كلنا معاً، لا يستطيع أن ينطق ولا أن يصرخ ولا أن ينبس ببنت شفة.

كانوا يُجلسون المعتقل على كرسيٍّ خشبيٍّ بعد أن يكونوا قد كبلوا يديه وعصبوا عينيه، ثم يأتون بالأنابيب التي تستعمل في البيوت لتوصيلات المياه ويدخلونها في فمه حتى تصل قريب معدته وهو يختنق بصراخه، وحين تبدأ عيونه تنزف يعرفون أن الأنبوب وصل الحد المطلوب، ثم يدخلون داخل ذاك الأنبوب الأسلاك الشائكة التي تكون لها مئات النتوءات القاتلة ويستمرون في دفعها حتى يبدأ المعتقل بلفظ دم معدته وهو لا يستطيع أن يصرخ ولا أن يستنجد، ثم يسحبون الأنبوب من معدته ليبقى السَّلك الشائك عالقاً من معدته حتى فمه ومع أول حركة يقوم بها المعتقل بعد أن يتركوه تنغرس أشواك السِّلك في داخله من أعلى حلقه حتى أدنى معدته، وهو يموت ألف مرة بصمت أبديٍّ عميق.

ينزعون عن عينيه العصبة السَّوداء ويطلقون يديه من الأغلال، ليبقى هو بينهم ينظر إليهم ودموعه هي كل لغاته، مبهوراً من شدة إجرامهم يعرف أن موعد الموت قد حان وهو يجول بين وجوهم التي كان يراها من

يموت فقط، وليسقط الكون كله عندما كانوا يضربونه فوق ذاك وهم يضحكون ويقولون له: اهتف الآن، اهتف للحرية الآن، كن رجلاً واهتف.

ونحن في ضباب الكون نلوذ بقاع صمته حتى لا نتفتت قهراً فيضيع كل شيء حتى عذابات أولئك المنسيين هناك، لم نستطع أن نفعل له أي شيء، بكينا ساعات ونحن نرى السِّلك الشائك الخارج من فمه وهو يبدو كينبوع أقدس دماء عرفتها البشرية، كأطهر دفقات قدمتها الإنسانية لدرب الحرية.

فجر اليوم التَّالي كان قد رحل، أخذ معه صراخاته المكتومة وغاب، حمل كل كواكب قهره قبل الموت وانسل من بيننا إلى الأبد. اكتب أيها التَّاريخ هذا شهيد صمتٍ جديد.

بعد أيامٍ طويلة وفي ذاك المساءِ المقتول الغياب، فُتحَ باب الزنزانة دون سُباب وشتائم وصرخ المساعد: وائل الزهراوي.

ظننت أني أحلم في بادئ الأمر، والمساعد يكرر إسمي ويصرخ : حيٌّ، أم أنه مات، رد عليه أحدهم نعم سيدي نعم هذا هو، نظرت للمعتقل الذي أشار إليّ مستغرباً كأنَّه يوجه إليّ تهمةً شائنةً.

خاطبني المساعد وأنا أنظر إلى الأرض: أنت وائل؟ قلت له: نعم سيدي.. قال: أمك رؤى وأبوك مَعن؟ قلت: نعم سيدي. فأشار إليّ بيده اقترب، وما إن أصبحتُ على بعد خطوةٍ واحدةٍ منه حتى صفعني صفعةً

أسقطني بها أرضاً، وصرخ ارتدي ثيابك يا كلب، ثم أغلق الباب ومضى.

وتلبَّدت سماء زنزانتنا بالأحلام، وهناك من رفع رأسه كأنه بُعثَ من الموت ينظر إليَّ ويبتسم، وآخر كان يقترب مني كثيراً ويكرر عليَّ عنوان بيتهِ، وثالث بكى وهو يعُدُّ لي أسماء أولاده ويشمُّني ثم صفعني، يا إلهي ما لذي يجري؟! وفي غمرة كل ذاك رمى لي معتقلٌ قميصه وبقي هو دون أي شيء، فأعدتُه له وتعانقنا أمداً وبكى طويلاً، ومازالت تنهداته تسكنُ في داخلي.

أنهى طقسَنا الأخير المساعد الذي فتحَ الباب وخاطبني قائلاً: يا ابن الأحذية لمَ لمْ ترتدي ثيابك؟ نظرتُ إلى الأرض وأنا أقول له: ليس لدي ثيابٌ ألبسها سيدي.. فصرخَ لأخطو خارج الزنزانة، وتكمَّشَت فيَّ سحابةُ أيادٍ امتدت من مقابر مجهولة، كيف أخرج من زنزانتنا؟! ها هنا الوطن كله والمدن والدروب والأحلام والهتافات والحنين والصرخات، وإلى هذه الجدران أنتمي. وكيف سأترك خلفي كل تيك الأرواح التي تنوح حولي؟ وما الذي سيمضي معي إن خرجت؟ وما الذي سيبقى مني هناك للأبد؟

لم يضربني المساعد على رأسي حين ربط على عيني العُصبة السَّوداء ولم يشتمني ولم يرطم رأسي بالجدران. مشى ولست أدري ما الذي مني مشى معه.

أنا لم أخرج من هناك لم أعد أستطع أن أخرج أبداً، في تيك الزنازين الممتدة من الدِّماء إلى الدِّماء تقبع أوطانٌ بأكملها فيها، فكيف يكون حراً

من كان وطنه معتقلاً؟! وصلنا إلى بهوٍ لم أطأه منذ شهورٍ طويلة، هناك وقفنا وتحدث السَّجان مع سجانين آخرين، أصبحنا خمسة معتقلين سيولدون من جديد، ولأول مرةٍ منذ لحظة وصولي ينزعون عن عيني العُصبة السَّوداء ولم يضربني أحد، لم أكن أصدق ما يجري لدرجة أنني كنت خائفاً أن يكون كل هذا حلماً وسأصحو منه بعد قليل، لكنه لم يكن حلماً، كل ما يحدث يوحي إليَّ أنه ليس كذلك.

قرأوا أسماءنا مرة أخرى، وأجلسونا على الأرض، وتركوا لنا حرية اختيار طريقةَ جلوسنا، فأسندتُ ظهري للجدار وأغمضت عيني، آه إنها بعض النَّسمات الباردة دون رائحتهم.

صعدنا إلى سيارة عسكرية توقفت عدة مرات، بعد ساعة لم يبق في السَّيارة سواي، وصلنا إلى مكان تكاثفت أمامه أفواج الحرس وأعلام الجيش الذي يخون الوطن، توقفت السَّيارة عند البوابة لثوانٍ ثم دخلنا إلى مبنى كبير يقع في منتصف العاصمة، فك أحدهم قيود يدي ثم نزلوا وتركوني، بعد قليل مدَّ أحدهم ضوء مصباحٍ يدويٍّ عليَّ ونزل به من رأسي إلى قدمي، ثبت ضوءه لثوانٍ على بقع الجرب التي افترست فخذي ثم مشى بالضوء مع خطوط الدم العابرة إلى قدمي.

أومأ لي بضوئه كي أنزل، كنت خائفاً أن يضربني، حميت رأسي بيدي وجلست على الأرض فور نزولي فاقترب مني وقال: لا تخف، لا تخف لن يضربك أحدٌ هنا، أين ثيابك؟ أجبته: ليس لدي ثياب يا سيدي.. أخرج من

جيبه منديلاً ورقياً غطى بها يده ثم أمسك بإبهامي وقادني إلي غرفةٍ رأيت فيها زرعةً خضراء وصورة كبيرة لرئيس دولتهم وأعلام كثيرة وهواتف وخرائط وأعقاب سجائر متجمعة في منفضةٍ تنبعث منها رائحة نتنٍ قاتلة.

ثم قال لي: تفضَّل اجلس، كانت كلمته كالصاعقة، تفضَّل! أتراه يخاطب غيري؟! أنا من قيود القاع عائد من شرفات الموت الأسود تاركاً خلفي كُلي وبقية خيالات هي ما تبقى مني، تجرأت ورفعت يدي أمامه، فضحك وقال: قل ما تريد دون أن ترفع يدك. قلت له: أنا عطشان يا سيدي. فقال: لا بأس، لا بأس.. أتى لي بقارورة ماء وأعطاني إياها، ولاحت أمامي لهفة الأصابع الممتدة نحو غطاء القارورة في طيات زنازين الهلاك هناك، والشِّفاه اليابسة التي كانت قبل الفراق الطَّويل تطلب رشفة ماء لا نملكها، واختناق الوجوه من عطش الليالي، فبكيت ونظرت إليه فتركني ومضى، شربت قليلاً منها، خطَرَ لي أن أخبئها، لكني شربت أكثر وأكثر، حتى لم يبقى فيها قطرةً واحدة، تكاثرت أصواتهم وجاءت جماعةٌ منهم بصحبة ضابطٍ كبير دخل الغرفة وهو ينظرُ إليَّ وقال: أنت وائل؟

هززت رأسي نعم، قال لي: انظر إليَّ يا بني لا تخف، أين ثيابك؟ أجابه أحدهم: وصل هكذا سيدي دون ثياب. فقال: أعطوهُ شيئاً يلبسه.. ركض أحدهم وغاب دقائق وعاد ومعه بنطال وقميص أسود، لبست الثِّياب ثم سألني: هل معك أي نقود؟ قلت له: لا أعرف سيدي. فضحكوا جميعاً، صمتَ دقائق ثم قال: انظر يا وائل، الآن ستذهب إلى بيتكم، فهمت؟ هززت رأسي ثم بكيت بأعلى صوتي فصمتوا جميعاً.

إلى أين أذهب أنا أشعر أني غريب بينهم؟ أهؤلاء حقاً سوريون؟ إنَّ كل من أنتمي إليهم مازالوا هناك حيث أتيت. آه لو أني التفاتة عمرٍ قصيرة كنت رحلت إليهم لأعطي كل واحدٍ منهم قارورة ماء، ونهر بكاء. هل كانوا يرون أغصان الغبار المتدلية من فمي؟ أم أن رفاق العذاب وحدهم من كانوا يرون ذلك؟!

ثم أكمل قائلاً : هذهِ هويَّتُك وهذه أغراضك وهذا دفتر خدمتك الإلزامية، وقع هنا يا وائل. كنت قد نسيت كيف أمسك القلم، ارتعشت يداي كثيراً، فأخذ إبهامي وبصم به على الورقة، أتراه حقاً كان يراني أنا ذاتي ذاك الشَّخص المبتسم في صورة هويتي؟ أما زال وجهي هو وجهي؟ أم أن بحة الأشلاء غيرتني حتى لم أعد أعرف من أكون؟

ثم علا صوته وهو يقول مع السَّلامة.. بكيت عِندما قال مع السَّلامة.

أحقاً هكذا سأمضي كأني لم أكن هناك؟ تجاعيد البؤس ضجت في داخلي. أهذا كل شيء؟ أنا إرث وطن مسجى بالعذاب..

أخرجوني من عنده إلى غرفةٍ صغيرةٍ قرب بابٍ كبيرٍ، سمحوا لي أن أغسل رجليَّ ويديَّ، وأعطاني أحدهم حذاءً ثم قال لي: تعال.. فمشيت معه. فتحَ باباً صغيراً نظَرَ منه ثم قال: مع السَّلامة.

توقفتُ مكاني أحدِّقُ فيه وأنظر لما وراء الباب، وتكاسلت الثَّواني وأنا أراقبُ شفتيه تتحركان وهو يومئ لي أن أخرج ويقول مع السَّلامة. لفحتني

نسمة هواءٍ فأوقفت الزَّمنَ الشَّريد وتسورتني العبرات، أنا خائفٌ من أن أخرج من هناك، خائفٌ من أن أترك كل ما اغتصبوه مني في غرف التَّحقيق وأمضي، خجلٌ من توسلاتي أمام العذاب، لقد أخذوا مني حياتي، فإلى أين أمضي؟! قبل ساعات قليلة كنت مرمياً في زنزانتنا التي التحفَت أرضها بقع الدم والبول وزفرات الجثث الوحيدة التي كانوا يكتبون عليها أرقامها بعد الموت، وحشود الجوع الظامئ لأرواحنا.

إلى من أنتمي؟ إلى ذاك الذي اعتقلوه قبل زمن بعيد؟ أم إلى هذا العائد من الموت وهو يرتعد من الحياة؟! لا بأس فبوجود هؤلاء لا فرق بين الحرية والسُّجون، والموت والحياة، الوطن والمعتقل، ليس هناك أي شيء يمكن أن يعطي حياتنا أي قيمة طالما أنهم موجودون بيننا.

دفعني وأغلق الباب، خَطوتُ بضعَ خطواتٍ وجلستُ على رصيف مسفوح كوطني الذي يضج بالمقابر، جَزِعٌ من كل هؤلاء المارة. بقيتي رعشاتٌ عارية من رمادي الذي يغطي جسدي، لاح في داخلي ذاك المعتقل الذي عانقني قبل أن أخرج وهو يعلم أنهم سيعدمونه اليوم، وغَمَرَ قلبي ودود وأصواته التي تتوسد روحي وخياله وهو يومئ لي أننا حين نخرج سيأخذني معه، وابتساماته التي كانت أجمل وأبعد من كل هذه النجوم، وملأتني رائحة قميصه، وجسده المرمي هناك كوشوشات المواسم المحترقة، وبقية الرفاق الذين خرجوا إلى المقابر المجهولة وأمسوا بعض تراب الوطن، كيف أطأ بقدمي تراباً امتزج بذرات أولئك الرُّسل الأوائل؟!

بكيتُ كثيراً ثم وقفتُ ومشيتُ، نظرتُ خلفي عدَّة مرات، تذكرتُ أشيائي التي أعطوني إياها، فتحت محفظتي، ياه! صورة طفلتيَّ.. جلست وبكيت ثانية، إننا حين نلقى من نحبهم بعد زمنٍ طويلٍ لا نبكي على الوقت الذي مضى دونهم، إننا نبكي لأننا لم نعد كما كنَّا قبل آخر فراق.

مشيت قليلاً وأنا أشعر بالتَّعب جراء خطواتي، مشيت أكثر وأكثر، كنتُ تراثاً من الجوع يخطو على قدميه، وها هي رائحة المأكولات تنبعث كأنها حريتي التي أمست حلماً بعيداً بعد اليوم، تسللتُ خائفاً إلى الداخل وكثيرٌ من الناس ينظرون إليَّ جلستُ إلى طاولةٍ صغيرة ، دقائق وأعطوني خبزاً بدأتُ آكله والنَّادل يسألني: ماذا تريد أستاذ؟ أتراه فعلاً يخاطبني أنا ذاتي؟ هل سيصفعني بعدما أنتهي؟ ما الذي سيفعلونه بي؟ وافقتُ على كل ما عَرضه عليَّ، وجاءت الأطباق كأنها العمر الذي انتظرتُه طويلاً، أكلت بنهمٍ شديدٍ لكني شبعت سريعاً وتوقفت عن الطّعام وعاودت البكاء، ثم مسحتُ دموعي ونظرتُ حولي. أتراهم عرفوا أنني معتقلٌ وعدُّت للتو من اللّظى؟

جاءني النادل بورقة بيضاء مكتوب عليها أرقام كثيرة، كنت قد فقدت قدرة قراءة الأرقام الصغيرة، وقبل أن ينتظر طويلاً قلت له: ليس لديَّ أي نقود. ويبسَت كل المواسم الرّاكضة نحو الآتي، تغيَّرت ملامح النادل ورمقني باحتقارٍ شديدٍ، نكرةٌ جديدٌ يتسول الطّعام، تقدَّم أحدهم مبتسماً وقال: لا بأس أنا سأتولى ذلك، نظرت إليه وغبت عن الوعي تماماً.

في صباح اليوم التَّالي كان هناكَ رجلٌ يبكي في زاوية الغرفة التي كنت

نائماً فيها، عندما بدأت أصحو راح يحبو نحوي وهو يجأر وينتحب ويقبِّل يديَّ وكلَّ مسامةٍ مني، ويصرخ: ولدي ابني حبيبي.. ويتلفَّتُ حوله، كأني أعرف ملامحه، رائحته عميقة في داخلي، فحين انغرست شعراتُ شاربه في جلد وجهي تذكرت أنني أعرف هذا الشعور مذ كنت طفلاً في كل مرةٍ كان يقبِّلني فيها أبي.

بهو العمارة المهجور كفمِ الخريف، والموت الذي يرتع بممالك الفناء ومحاولات الهروب المنخور، وذاك السُّلم المختنق بالركام، ورائحة الغبار المنبعثة من حطام الأشياء، والدَّرجات القليلة المتبقية لنصل إلى الشُّرفة، كانت تجعلني أشعر أن كل شيءٍ يتكرر هنا، كأنني في حلم. لقد رأيت كل هذا الخراب في داخلي قبل أن يُغطي مدينتي.

حين ولجنا إلى الشُّرفة أشار ذاك العجوزُ بيده وقال: انظر هناك.. كانت جثة محمود صديق طفولتي تعانق انكسار الفراغ المثقل بأنين مدينتنا التي استحالت غاباتٍ من الشحوب، منتفخة الأطراف، قَضمت الطيور بعضاً من ملامح وجهه، وتكفَّلت البهائم بأنامله التي كانت تتقن مداعبة أوتار العود، كان صديق العمر يؤكل في العتمة حيث الليل الأجوف والآثام التي اختبأت بأرصفة القاع الذي بات وطننا الجديد.

والمطر حمل دمهُ وهاجر إلى عجزنا عن سحب جثمانه منذ ستة أيام، جسده المنسي تحت البرد والريح كان يختزن كل الحكاية ووسائد البكاء التي ارتمت عليها شوارع طفولتنا لم تعد تقنع القبح أن يرحل بعد اليوم لقد استوطن الأسى ها هنا في حلب.

مضت سبعةُ أشهر على إطلاق سراحي، القليلُ تغيَّر في داخلي، لكنَّ الكثير قد شَاخْ وتَبدل في مدينتنا، قهقهات الفزع والتاريخ المشنوق على المفارق كان يجعلني أدبُّ في داخلي كأني لا أعرف هذه الطرقات حيث ولدت وحيث مضى العمرُ كُله، ونحن مُحاصَرون منذ شهرين لم يبق في المدينة سوى التَّجاعيد والجوعُ الذي سكن السَّماء والسُّقوف والعيون التي ترقبُ القادمين من الطُّرقات الطَّويلة يجرُّون خلفهم قوافل الخيبات التي تزيدهم موتاً وجوعاً، انقسمت المدينة إلى كونين مختلفين، أصبحت هناك حدودٌ وخرائط تمر من ذات الشَّوارع التي رسمنا عليها صغاراً تقاسيم أحلامنا اللَّزجة، وبضعة أمتارٍ فقط تفصل بين دولتين مختلفتين، وسلطتين متحاربتين، وأسلحة كثيرة، الشيء الوحيد الذي كان مشتركاً بين طرفي المدينة هو الجثث التي أردَتها طلقات القناصين المختبئين في الأبنية التي استندَتْ على بعضها من تعب الحروب، الجثثُ التي تنتمي كلها لهذه الأرض التي ولدنا عليها قبل أن يأتي كل هؤلاء، الأعلام الصفراء التي يرفعونها بيننا وبينها خصام تاريخ، والأناشيد التي يسمعونها لم نعرفها منذ الطفولة.

منذُ أسبوع كنت عائداً من محاولةٍ خائبةٍ للحصول على أي شيء يمكن أن يَمضغهُ الأطفال، بعد شتاتٍ لنصف يوم حصلتُ على نصف كيسٍ من الخبز وبعضُ حبَّات زيتون اختلطت بالتُّراب الذي صار يملئ كل تضاريس بؤسنا، لديَّ طفلتان تنتظراني في بيتنا الصامتْ كالليل الطَّويل الذي كان يجر خلف كل صباحٍ جثثاً جديدة. بعد وصولي بدقائق كان الخبز والزيتون قد اختفيا تماماً، وأبي الذي كان يحاول أن يتعالى على الجوع التهم

قطعة الخبز الصغيرة بعد أن بللها بالكثير من الدُّموع.

كنت أقرأ في كتاب عتيقٍ حين طُرق الباب، دخل محمود إلى غرفتي مضنىً بأسماله وهو يتساقط من شدة الإعياء، تهاوى على الكرسي، تنهَّد كثيراً، ضرب كفيه ببعضهما وقال: ماذا أفعل؟ منذ البارحة لم يأكل الأولاد شيئاً.. إلى أين أذهب؟ أنا لست خجلاً من أني لم أحصل على شيء، أنا خجلٌ لأني في كل مرةٍ أعود للبيت كما خرجت تبتسم ابنتي وتقول لا بأس يا أبي أنا لستُ جائعة. وأنا أعرفُ أنَّ الجوع يبكيها قبل النوم الذي هو موتٌ مؤقتٌ حتى الصَّباح.

أنا لا أحتمل كل هذا، بالأمس عزفتُ لهم على العود قبل أن يناموا، لكني شَعرت فجأة أنني تافه جداً ومهزوم جداً، كيف يمكن أن تؤثر الموسيقى في البطون التي نمى لجوعها أظافر مِن خوار، أنا بعض نزف هذه المدينة التي بات كل شيء فيها يَجفُ كاللعاب المهاجر من فمي.

حاولت أن أنطقَ بأي شيءٍ، تلاطمت الكلمات أمام ملامحهِ الغائرة، أنفه المدبب وشعرهُ المسترسل وعيناه الواسعتين ووجهه النحيل ورعشة شفاهه كانت تجعل الحزن يبدو توأم رحمه الذي وُلِدَ معه، خرجتُ مسرعاً أسأل أمي إن بقي شيء من الخبز، لكنها أشاحت وجهها الباكي ورفعت كفيها تدعو للسَّماء، المدينة كلها تتساقط من الجوع، توجهتُ للجيران، سألتُ كل من أعرفهم لعلي لا أعود بخيبة جديدة لمحمود وأطفاله الأربعة. لكن دون جدوى.

عدتُ للمنزل وهو مازال متكئاً على الكرسي ذاته، جلستُ على الأرض وددت لو يحنو عليَّ الموت ويخطفني من هناك، وقف على قدميه ، التفتَ نحوي وهو يتوارى خلف أدغال قهره، نظر إلى السَّماء، مسح عينيه ثم عصف به البكاء فأطلق أنيناً أعادني لزنزانتنا حيث الأنين لا ينتهي، مضى وهو يَتبددُ رويداً رويداً وبدا الغيب هزيلاً والسَّماءُ ليس فيها سوى الملح، والغروب هو الآتي الوحيد.

في ذات اللَّيلة منذ سبعة أيامٍ فقط. حاول محمود أن يعبر الشَّارع القريب من بيته ويصل إلى الدَّولة الأخرى التي يبعد عنها أمتاراً قليلة فقط ونجح في ذلك، لمحهُ القناص ليلاً وهو يعدو نحو الطَّرف الآخر، اشترى من هناك خبزاً ولبنا وبعض الخضار، انتظره القناص طويلاً، بعد منتصف الليل حين راحَ يعدو قافلاً تركَهُ يقطع بضعَ خطوات، ثم أطلق عليه الرصَّاصة الأولى فأصابه بفخذه فكسر رجله، سقطَ محمود وهو يحاول أن يتمَسَّك بصرخات زوجته التي كانت تراه على بُعدِ عشرات الأمتار فقط من شُرفة منزلهم، ثم أنفذه رصاصة أخرى في خاصرته فصرخ حتى بكى الخبز الذي تفتت على بعد عمرٍ واحدٍ من الرَّصيف القريب ، وأطلق الرصاصة الثَّالثة التي سكنت في رأسه حيث حَمَلتهُ إلى عالم لن يحتاج فيه الخبز بعد اليوم.

في صباح اليوم التَّالي خرج كل أهل الأزقةِ العتيقة يبكون جسد محمود الذي كان مازال يُخبئ تحته بعض قطع الخضروات والخبز، وأطفاله تسللوا بين الجموع وشاهدوا أباهم مستلقياً تحت المطر وعلبة تبغه سبقت جثته بخطوات نحو منزله الهرِم.

بقيت جثته تنتظر في العراء أحد عشر يوماً، حتى اتفقوا على هدنةِ ثلاث ساعات لسحب الجثث، ولازالت الحديقة التي لعبنا فيها سنوات طويلة تخبئ جسد محمود وخبزه الذي حصدناه قمحاً أشبعَ الوطنَ كله.

في كل حارةً من حارات حلب كان هناك غرباءٌ جُدد، يحملونَ لهجاتٍ كريهة، وملامح بغيضة ووجوهاً تكتم ظمئاً دفيناً للانتقام، الماء يصلنا كل خمسة عشر يوماً، والسَّغبُ يعبث بالمدينة منذ سنوات وهؤلاء المسوخ البذيؤون يزيدون القبح شناعة بحضورهم في حياتنا التي أمست مثقلةً بالجنائز.

نخرج لندفن بعضنا في مواقيت محددة، ونقف في طوابير طويلة كي نحصل على رغيفين من الخبز لكل عائلة، وربما يكون نصيب الفرد ربع رغيف. في النهار ينالنا كمٌ هائل من الشتائم والإهانات من أفرادِ الجيش الذي يرفع أعلام الوطن ويحتله، كي يسمحوا لنا أن نمُرَ من شوارع كنا نلعبُ فيها قبل أن يولدوا.
و في الليل يأوون للأرامل والنساء كي يستعرضوا أمامهن بطولاتهم التي تفوح رائحتها كريهة جداً حين يحاصرهم بعض المقاتلين من الطَّرف الآخر، إنهم مسوخ جدد يعتقلوننا دون زنزانة وجدران، نتعذب علناً. نُصفع من قبل أشخاص يحملون جِنسيةَ البارود، لا نعرفُ من يكونون ولا من أين أتوا، يأخذون كل ما يريدونه منّا حتى لم يبق فينا شيء يرغبون فيه، يتملكنا القهر كأننا خلقنا له، نتباكى بصمتٍ محمومٍ ونقتسمُ العبرات والانتظار الجريح، مَنفيون داخل الوطن.

وفي ذاك الصباح المبتور الغفوات بدأت أسمع أصواتهم وشتائمهم ، كانوا يحاولون كسر باب بيتنا المتعب. العبارات الرَّخيصة ذاتها، ظننت أنني أتوهم، لقد اعتدت أن يكون نهاري بين الناس وليلي في زنزانتنا التي مازال القهر فيها يمضغ نظرات المفقودين.

ازادت حدة ضرباتهم على الباب، فتحت أمي باب غرفتي تبحث عني، رغم أنها تراني، سبقَتْ دموعها لعثمة كلماتها، اختَنقتْ بملامحها، صرخَتْ دون صوت وهي تقول إنهم هنا، ثم علا صوت عويلها الذي نعاني كمفقودٍ دون طريق.

وقفتُ مكسور الشَّهيق، كيف يمكن أن يكون القدر بغياً إلى هذا الحد فيجعل الوجه الأخير الذي أراه قبل أن يبدأ الموت الجديد وجه أمي! لم ينطق أحدهم بشيء، والقيود التي كبَّلوا بها يديَّ بدت ممحية الرُّقاد. وما إن أغلقوا باب بيتنا حتى انهالوا عليَّ بكلّ ما يحملونه من نضوب الضَّمير، شجَّ أحدهم رأسي ببندقيته التي دفع ثمن رصاصاتها المعدمون، فسال الدَّم على وجهي حتى غطى ملامحي التي كانت تشتاق رائحة قميص ودود الشهيد وثرثرات آخر أشرعة الرحيل.

حين بدأت أخرجُ من مَدخل دارنا كانت أمي تقفُ على الشُّرفة وقد أيقظَ بكاؤها وخزة الهتافات الأولى، نادت عليَّ كثيراً وطويلاً لكنني آثرت أن أكتوي بديمومة الفراق على أن يطعنها الدَّم الذي طمسَ وجهي فاستحلتُ شيئاً يملكونه كما يملكون كل المآذن المهدمة.

رَموني في سيارتهم وجلسوا فوقي، تعثَّر المساعد برأسي فراح يشدني كي يُدخل رِجله بين جسدي ويديَّ المكبَّلتين. وتلوى العذابُ أمامي وأنا ألمح أبي متجمداً على بعد خطواتٍ من سيارتهم غير مصدِّقٍ أن المهزوم هناك هو ولده، ونَمَتْ على كتفيه المتعبين سنابل الأفول، ودموعه كانت باسمة الصَّدى وأشار إليَّ بيده فسقطَ كيسُ الخبز الذي غادر لأجله منذ منتصفِ ليلة البارحة، طوفانُ الدموع بعينيه هزمه فاتكئ على الحائط وبكى وهو يصطف بطابور المصائب الطويل الذي ينام أمام أبواب مدينتنا.

ضربني أحدهم على رأسي بعصى قصيرة ثم أتبعها بضربةٍ ثانيةٍ على أذني فصرخت وأنا مغروس الرأس بين أحذيتهم، وتكاثرت على جسدي نهشات الألم من جديد، آه أيها الوجع! يا رفيق الثَّورة والأمنيات يا خبزنا المفقود، أنت الوحيد الذي بقيتَ مخلصاً لنا .

لم تبتعد السَّيارة التي كنت فيها معهم كثيراً، لكني شعرت أن أكواناً تفصلني عن طفلتي التي مازالت نائمة بين آثام المجهول، وضع أحدهم رجله فوق رقبتي وراح يضغط على حلقي، اختنقتُ باحتشاد الضَّيم، حرَّكت رأسي ألوذ برذاذ البقاء، رفعها عني، فشهقتُ بالموت ، ضحكوا جميعاً.

وضعوا كل أرجلهم على جسدي المثقل بسراب أحلامنا الضَّريرة، حاولت أن أتمسك بعروق الصَّحو كي أُبقي على بعض شيء مني، لكني كنتُ أضعفَ من ذلك بكثير، لاحَتْ لي كل ثواني العذاب الذي مازالت آثاره تتلفتُ في أرجائي.

منذ ظهيرة الأمس لم يدخل جوفي أيُّ شيء، كان الجوع يتهدل طيوفاً تريني الآتي من خلال رجسٍ بقاءهم. أردتُ ألا أسقط أمام بعضي، لكني لم أعد أحتمل كل هذا، تراميتُ على أطراف ثقوبي وأسلمتُ نفسي للبكاء، لقد كان يؤلمني أن تُعتقل مرةً أخرى وأنت جائعٌ يا ذاك الذي يسكن في داخلي.

وصلنا للفرع الأمني الذي مشيت بقربه مئات المرات منذ الطفولة وسمعت عنه حكايات كثيرة وابتلع آلافاً من أهل هذه المدينة المترنحة الانتماء، جروني من قدميَّ فسقطتُ على وجهي، ودون كلمةٍ واحدةٍ علاني أحدهم، وعاد الكبل المشتاق إلى لحمي يوقِظ الألم الوئيد في كثبان جلدي المهادن لخطايا الأقدار، والعصى التي أمسك بها سجانٌ أخر كانت تبعث حرائق في قدميَّ وتهتك الخطوات الأولى نحو الوطن.

و الثَّالث كان يركلني على صدري، والوجع راح يلملم أشلاء الخوف ويجمعها من جديد، كنتُ أفرُك الأرض بجسدي أبثها وجعي، أصرخ، أتبعثر، أبكي، ألتهم جوف الرماد الذي أمسى كل ما تبقى من أرصفة العمر المطرَّز بالرَّجفات لعلني أهرب من وجعي، هيهات! الألم هنا حاسر الرأس ينصت مبتسم الأحشاء.

رائحةُ أحذيتهم كانت تكفن الثَّواني لتُسقط آخر أسوار تمسكي بالبقاء، بدأت أغرق بين فراغات الوقت، والخَدرُ راحَ يهدهد لأضلعي الراحلة إلى خارجي وخَبَتْ استجابتي للعذاب، كانوا يجلدونَ كل ما أنتمي إليه في داخلي، يضربون الشَّوارع التي مشينا فيها، والهتافات التي هزمتهم في وقائع كثيرة،

والتَّحدي الذي يدقُّ الأجراس فيخيفُ نسغ وجود طغيانهم الطَّويل، يجلدون فيَّ حقيقة أنهم زائلون وأننا بعد اليوم لن نرضى أن تُكتبَ أسماؤهم حتى على أحذية أطفالنا.

يجلدون فيَّ وطني كله. وطني الذي سيبقى حين ينتهون، وهذه جدرانهم التي مازالت تحمل عبارات صرخاتنا المشبعةِ بالطُّهر تشهد عليهم، يريدون أن تتوسل كل السُّطور التي كتبناها على الأبنية يوم أسقطناهم ورحل الضباب، رموني تحت سلمٍ حديديٍّ طويلٍ، بدأت أستعيد قدرتي على إدراك ما يحيط بي مجدداً عندما بصق عليَّ أحدهم وهو يجرني على الأرض نحو قسم التَّحقيق، وصبَّ عليَّ بعض الماء والكثير من الشَّتائم التي عرفها مذ كان معلقاً بحبله السِّريِّ، وها أنا ذا بعد كل ما مضى، أقفُ مرةً أخرى على أعتاب زنزانةٍ جديدة، ووجوهٌ جديدة ستسكن في داخلي ها أنا ذا أنتقل من زنزانةٍ كبرى إلى جدرانٍ وأصفاد وأبواب وغرفٍ صغيرة، لقد شاخ القلب من العذاب وهو ينتظر الفجر أن يعود من التيه.

عفونة الزنزانة العجوز لم تكن تختلف عن رائحة الشَّوارع والأزقة والدُّروب، والمعتقلون الجدد لم يعودوا يحملون معهم رائحة الحياة، بات الحُلمُ بالحرية أبعدَ من حدودِ القُضبان، أصواتُ القذائفِ والمعارك تجعل أمنيات الخلاص مشوَّهةَ الجنين، وخارج هذه الزنزانة يشبه كثيراً ما في داخلها، وكآبةُ الصَّباحات التي تذكِّرك أنَّكَ في قعرِ زنزانة موت، تشبه كثيراً دموع سكان هذي المدينة وهم يعالجون الأيام من خلال الجوع وأنياب الحصار، الزنزانة الصَّغيرة التي يقع في أحد زواياها مرحاض صغير كانت تزدحم بالزَّفرات المتعثرة، ونحن سبعة وعشرون ميتاً يقف نصفنا ويجلس النِّصف الآخر، وهي ليست أكثر من ثلاثة أمتار في ثلاثة مثلها.

قسم التَّحقيق الذي نحن فيه يقع تحت الأرض في قبوٍ مبنيٍ على شكل صندوق مفتوح تتوزع على أطرافه زنازين الاعتقال، بينما يقبع المحققون في المنتصف في مكاتب على شكل مربع تتصل جميع أبوابه ببعضها البعض، والممر الفاصل بين غرف التَّحقيق والزَّنازين التِّسعة ليس أكثر من متر ونصف، وبهذا كان يفاع العويل وأنين التَّعذيب يُحيلنا إلى أحطاب احتضارٍ لا ينتهي أبداً.

أما حين تَعلو صرخات النساء تحت لهيب السِّياط ، ويرتفع صوت بكائهن من ألمَ العذاب، تمطرُ سقوف الزنازين بقية فتاتَ الوطن، وتتساقط الصَلوات خجلى ونحن نعبُّ لظى اختناق اللحظات، والرؤوس تختفي داخل أجسادها تبحث عن مكان آخر لتسكن فيه، ونحن عصفٌ مقيدٌ بأحذية المارة الذين لا يسمعون أصواتنا المفقودة الظلال.

تتصل الزنازين بفتحات للتهوية، هي عبارة عن نوافذ صغيرة للهواء، ومن تلك الفتحات الصغيرة في جدران الزَّنازين، كان الأخ يعرف أن جداراً يفصِلُ بينه وبين أخاه المعتقل معه منذ عامٍ وهو لا يدري، ويتناقل المعتقلون همساً أسماء كل أولئك السُّوريون الذي قتلوا تحت التَّعذيب، وتمر الأمنيات والأحلام والتوقعات وأوهامُ الخلاص وهي مشبعة بالدُّموع والانتظار والتوجُّع والحنين والموت.

ولن تنسَ تيك النوافذ الصغيرة إلى الأبد، كيفَ أن عشرات المعتقلين أقسموا من خلالها على الثَّورة داخل أقبية الموت تلك، وانتهَت أحلامهم بعشرات الجثث المجهولة الوجوه التي لم يسمع صراخها أحد ولم يعلم وجعها أحد، وكم سمعَتْ النِّساء والأطفال أصوات الآباء والأزواج يُعذَّبون حتى الموت على بُعدِ خطواتٍ قليلة منهم ثم خَبَتْ صرخاتهم إلى الأبد، في زنزانتنا تلك يتوقف قطار الموت منذ خمسين عاماً ليحمل معه أرواح سوريين جُدد كل يوم، ولم يغير موعده مذ نصف قرن مرةً واحدةً، وبقيَّةُ الحياة التي تدُّبُ على عصاها مهزومةً أمام الموت تجعل المأساة تتناسل من كل شيءٍ نقوله أو نفكر فيه في زنزانتنا العتيقة، والخراب الذي تغلغل في

ذواتنا انتصر وَجَعهُ على أي شيءٍ آخر، لقد مرَّت خمس سنوات على بداية الثَّورة ، واستحال الحلم بالحرِّية إلى حُلمِ البقاء على قيد الحياة.

الضَّوء المنبعث بشحٍ شديد، كان بالكاد يسمحُ لنا أن نميِّز وجوه بعضنا البعض، لكن ملامح بشير ستبقى أغوار الأسى الأشيب في ذاكرة الأحجار هناك، فعظمُ فخذه الذي تجمَّعتْ فوقه نُسج بقايا اللحم المتعفن كان ينزُّ قيحاً يُشاركني بعضه بحكم أننا ملتصقين ببعضنا، وليالي التَّعذيب التي أورثته جسداً مملوءاً بالثَّقوب لم تمنعه أن يسرد لي عشرات الحكايات التي حفظتُها غيباً لأنه كان يعيدها عليَّ كل الوقت.

بشير كان أمياً، والأميُّون هم الأكثر إخلاصاً للمبادئ، وفي ذات الوقت هم الأشد عذاباً، يُعبِّرونَ عن كل شيء بالمفردات ذاتها، لغتهم الضَّيقة كانت تجعل العذاب يستبيح كل المعاني التي يَروونها، عيناهُ الجاحظتان وأنفه المدبب وحاجباه الكثيفان وعظام أكتافه البارزة ورائحتهُ المهولة والجرب الذي يشاركه جسده وسعاله البالي كان يؤكد لكل من يراه أن موته قريب، لم يكن بكامل وعيه فعيناه النِّصف مغلقتَين والتَّعذيب الشَّديد الذي تعرض له جعل ذاكرته تَختزل حياته ببضع كلمات لم تتعدَ أسماء زوجته وأطفاله وأمه، وجاره البقال الذي كان يُقرضه الحياة.

اكتشف بشير ذاته داخل المعتقل وتعرَّف على نفسه في العتمة والظَّلام وحدَّد موقفه من الحياة وأعاد تسمية الكثير من الاشياء، والأهمُ من ذلك كُلِّهِ أنَّه اكتشفَ تحت حريق التَّعذيب وصُراخ السِّياط عشقه

اللامحدود لزوجته سناء، وأدرك كم أنها إنسانة نبيلة كي تشاركه ذلك البؤس الذي كان يُسمَّى حياته.

وما تعودنا عليه أن يبدأ التَّحقيق مع النِّساء بعد الثَّانية عشرة ليلاً، لكننا بدأنا نسمع أصوات النساء مبكِّراً هذه الليلة وهن يقلن: حاضر سيدي، حاضر سيدي، حين ينطق أحد المجرمين بأسمائهن.

التَّعذيب هو هندسة القهر وأدواته دليلُ توحُّشِ البشرية، وتعذيب النِّساء مازال أقسى أنواع القهر الذي يذروا طعم الفجيعة في جنازة الضَّمائر، انتهت حفلة التَّحقيق مع الدفعة الأولى من النِّساء، أربعة نساء يتم توزيعهنَّ على أربعة محققين ومعهن أربعة مساعدين مجرمين من القتلة ومصاصي الدماء، ثوانٍ وتدقُّ الصَّرخات أبواب السَّماء، والعويل يغير مساحات الوقت، ودهشة العذاب تجعل كل شيء يطفو على سطح الروح.

كان بشير غافياً على كتفي الأيمن حين بدأ المساعد يصرخ بأسماء الدفعة الثَّانية من النِّساء اللواتي سيتم التَّحقيق معهن، وعلى ذات فجيعة من الزمان شعرت أن فكي أصيب بالشَّلل بعد أن نطق المساعد المسخ الاسم الثَّاني: سناء نبعة.

صحى بشير من غفوته ونظر إليَّ لأول مرة وعيناه مفتوحتان بالكامل، تركتُ نظراته تنساب بداخلي، حولتني عيناه لنصف وجود وتراكمت بداخلي سنوات من بكاء وهو يقول : هذا اسم سناء زوجتي، يا الله! سناء زوجتي

هنا معنا.

لا، لا، أنت تحلم، هدء من روعك. لم يكن المسكين يعلم أنهم بعد أن اعتقلوه رجعوا لبيته واعتقلوا زوجته سناء بعدهُ بساعتين، لكن المسخ كرر الاسم قبل أن يُدخلوا السَّجينات للتحقيق فأعاد ذكر الأسماء، وقف بشير على قدميه وهو ينصت بكل ذرة منه وجاء الاسم ثانيةً وأعلى من أول مرة: سناء نبعة.

ضرب بشير رأسه بيديه وصرخ: يا الله! يا رباه! هذه زوجتي سناء. نظر إليَّ وأنا بعض الأحطاب التي تختبئ بالحزن الذي يمتص عجزي حتى عن النُّطق بشيء، وأطرق كل المعتقلين رأسهم خوفاً من أن تصادف عيناه أحداً منَّا، كانت عبراته تفتتان ارتجاف القدر أمام وجعه وهو فاغرٌ ثغره مرتعش الشَّفتين مصفر الوجه، يستنجد بحشرجات الأقدار المغمسة بالدِّماء، رفع صوته الذي كان يرتجف أكثر من رعشة جسده، وراح يصرخ على زوجته سناء، ومآذن الوجع تنوح في أقاصيه. وضعت يدي على فمه لكنه دفعني بقوةٍ لم يأتِ بها من جسده الهزيل وجأر من كل قطرة دمٍ وراح ينادي: سناء، سناء.. وبصوتٍ مرتجفٍ معتق بالخوف ردت عليه زوجته سناء من وراء الباب: نعم بشير أنا هنا.. وجاء صوت المساعد يباغت إصغاء الطُّهر للحديث الأخير: تردين عليه يا عاهرة! ودوَّى صوت الصَّفعة عالياً فصرخَت: آه يا أمي.. وتنهدات بكاءها شربت بقية الدِّماء التي كانت تسكن زوجها المحدودب الأنين، أدخلوا سناء للتحقيق، وصوتها قريبٌ جداً كأنه بيننا، راحوا يعذِّبونها وعلا عويلها وهي تستنجد ببشير من ألم السِّياط

والكبال وسعير التَّعذيب، وبشير يصرخ: سناء، سناء.. وراحَ يبكي بكاءً غريباً، وينادي: سناء، منذ متى وأنتِ هنا؟ سناء، أين أولادنا يا سناء؟ وهي تستجير به وهو لا يملك لها سوى الدُّموع التي أحالت السَّماوات إلى خرائب تلهث أمام هلع المشهد القتيل.

أتى صوت المساعد علي كصوت الموت: اضرب الباب أكثر واصرخ بصوتٍ أعلى، دقائق وسآتي لأعيد تشكيل وجهك.

ومازال تراطم المفاتيح يخيفني حتى اليوم فذات الصوت كنت أسمعه دوماً قبل الموت، بعد ثوانٍ فُتِحَ الباب وكان ظلُّ المساعد كبيراً جداً ملأ كلَّ الغرفة، وبدت يده وهي ممسكةٌ كبل الدَّبابة أكبر من كل أحلامي وأعظم من كل الهتافات، والخوف المُرتبك هَجرتهُ الصرخات.

ولأول مرَّةٍ ينظر معتقل في عيون المساعد الموغل في الجريمة، إنها صحوةُ الموت، كانا يقفان وجهاً لوجه، الخير والشَّر، الحب والكراهية، الموت والحياة، الرُّجولة والدَّناءة، الوطن والغرباء، ركل المساعد بشيراً على بطنه فوقع أرضاً وهو مازال يصرخ: سناء، سناء. وقال لبشير: لا تحزن على سناء، سأضع في رحمها ولداً يشبهني، ستسمع الآن كيف أن ربَّك سيبكي معك.. وجره سجانٌ آخر من رجليه حتى باب الزنزانة. كنت أقف ورأسي باتجاه الحائط وأراه بطرف عيني، كبَّلوا يديه وكبَّلوا رجليه لم يكن وزن بشير أكثر من أربعين كيلو غراماً، هيكلٌ عظميٌّ تتردد فيه الأنفاس .

رفع السَّجان يده بكبل الدَّبابو الى أعلى وهَوى بها على غير عادته على رأس بشير فأتى الصوت يوقظ رقدة الأزل، صرخ بشير من نخاع عظامه: آه! يا أمي آه!   يا الله! يا سناء! يارب! وارتفع صوت سناء هناك أيضا بالبكاء، وامتزج عويلهما معاً، واختلطت دفقات البكاء بحشرجات العبرات وكلٌ منهما يستنجد بالآخر، كان صراخهما ينخزُ شيخوخة الأسى، ويشنق بقية الحلم، ويهيئ الكون لعصر الأفول، ويمسح وجه عبراتنا الثَّكلى بدماء جراح الوطن.

أغمي على بشير بعد الكبل الواحد والثَّلاثين ونزف الدَّم من أنفه وأذنيه وفمه وقدميه وفخذه، وهَدأت أصواتُ سناء بعد أن تلاشى صوت بشير، ألقوهُ داخل زنزانتنا وما إن التفتنا لنراه حتى فتحوا الباب من جديد، أمسكوا بقدميه وجروه كما يسحل الوحش فريسته ليلتهمها، لم يترك بشير في داخلي شيئاً، ولم يترك لي شيئاً سوى خيط الدم الذي رسمه تحته وهو يمضي للمجهول حيث اختفى واختفيتُ معه، وشهقنا شهقة الغريق الذي وصل سطح الماء، وشرعنا ندفن ملامح بشير في قلوبنا التي لم تعد تتسع لمزيد من قوافل الموت.

أتراه سيعود يوماً؟ كنا تواعدنا أن نبقى معاً. فما بال كل أولئك السُّوريين أَلِفوا دربَ الرَّحيل؟، ألم نتعاهد في مظاهراتنا الأولى على أن نُكمل حتى النهاية؟ أم أنَّ ملامة البدء لفحتهم فهجروا الجهات دون اكتمال.

في اليوم التَّالي ملأ صطُّوف الفراغَ الذي تركه بشير، مساءً طلبوهُ للتحقيق، وبعد منتصف الليل رموهُ بيننا، كان قد فقد جُلَّ ملامحه

وعميَتْ عيناه وكُسِرَ أنفه كسراً جعله بالكاد معلقاً بوجهه، وخنصرُ يده مهروس كأنه لحمٌ مطبوخٌ، في مساء ذاك اليوم كان يمجُّ دماً وهو يتلمس أيدينا ويئن أنيناً أفقدنا رغبتنا بما وراء تلك الأبواب الموصدة قبل أن نولد.

صطُّوف كان رغم سنواته الأربعين يعالج الحياة كأنه في طور الطُّفولة الأولى، يعيد استغرابه كل يوم كيف أنَّه أنجب ستةَ أطفالٍ لا يعرف هو ذاته التَّرتيب الصَّحيح لأعمارهم وأسمائهم، يعضّ شفتيه ويبكي حين يذكر كيف أنه ربط عيني طفله الصَّغير بقماشةٍ سوداء، ثم كبّلَ له يديه وضربه بخيزرانة كان يُعلقها فوق باب البيت، وأن السَّجان فعل به تماماً كما فعل هو بطفله الصَّغير.

يساعد جميع المعتقلين فيعطيهم كل ما يملك، يوافق على كل شيء، يبكي لأي حزن يتبدى، ويحاول أن يفهم العالم الذي لم يعرفهُ من خلال أسئلة تكشف عن مدى بساطة داخله، فيسألني إن كان في الدنيا كلها مدينةٌ أكبرُ من حلب، إنه صطُّوف الذي كنا نحبه جميعاً باختلاف توجهاتنا، لأنه كان موجوداً في كل زوايا زنزانتنا وفي ذات الوقت هو غير مرئيٍّ أبداً.

ضرسه المكسور كان سنامة وجعه الذي قاده نحو الفاجعة، فبحلولِ المساء بدأ صُراخه يشتدُّ وصوته يعلو ونحن نحاول أن نخفي نحيبه بقطعة قماشٍ دسسناها بفمه ليعضّ عليها، لكن وجوةَ الجحيم كانت تريد غير ذلك، وعلى حين قهرٍ سمعهُ السَّجان، وأقبل نحونا يتوعد ويُرعد ويُزبد، فتح باب زنزانتنا وكنا نحن كالعادة قد وقفنا وأدرنا وجوهنا للحائط، سأل

من الذي يصرخ؟ ومع سؤاله سقط صطُّوف أرضاً فعرف أنه هو وسأله: ما بك؟ فتمتم أنَّ ضرسه المكسور يؤلمه بشكلٍ لا يُطاق.

أَمَرَهُ أن يقترب منه وطلب منه أي يشير للضِّرس الذي يوجعه، فوضع إصبعه عليه، فقال له السَّجان انتظر هنا، غاب دقيقةً واحدةً، عاد ومعه الأصفاد، صفَّدَ يديه للخلف، وحاول أن يربطه بالباب، لكنه سقطَ من عظيم وهنه، فنادى عليَّ وعلى معتقلٍ آخر كي نمسكه حتى يبقى منتصباً، وبدأ صطُّوف يصرخ من ألم رجليه والمساعد يصفعه بشدَّةٍ ثم أخرج من جيبه كماشَة الحديد.

كانت تلك اللحظات أشدَّ على قلبي من أن يقتلع المساعد من لحمي كل ما أراده من صطُّوف، ضربهُ على رأسه عدة مراتٍ وهو يأمره أن يفتح فمه، وصطُّوف يستجير وبكاؤه تحول لعويل، أصرَّ أن يوقظ في داخلي كل نُعاة الأرض حين نظر إليَّ مستجيراً مما هو فيه وأنا أُثبِّته كي يَعُبَّ أكثر من العذاب، في حُمرةِ دفقات دموعه وتباطؤ الزَّمن فقدتُ حبلي السِّري وأضعت مذ آنذاك دليل خطواتي، فالمعتقل ليس هو ذاك القابع في زنزانة يفكر كيف سيهربُ منها، المعتقلُ هو ذاك الذي تأخذه كل دروب قضيته إلى زنزانةٍ جديدةٍ.

ضربه السَّجان بالكماشة على أنفه المُحطَّم، فنفرَ دمه وملأ الممر، فتحَ السَّجان له فمه وأطبق على ضرسه المكسور، وأخذ يحاول خلعه وهو يضحك، وخلفهُ سجانون آخرون يضحكون معه، انزلقت الكماشة من يده

فكسرت لصطُّوف ضرساً آخر، حاول المسخ أن يمسك الضِّرس مرةً أخرى فأطبق خطأً على طرف لسان صطُّوف فقطع منه قطعةً صغيرةً جعلته يغرغر كأنه يلفظ روحه ثم فقد وعيه.

ضربه عدَّة ضربات بالكبْل على رأسه فصحى وهو يهز رأسهُ وتناثر ما تبقى من أسنانه في الممر، وقِطَعُ لسانه تعلقت بقميصه الذي كان يعدو خلف الثَّواني كالفجر الجريح، لم أستطع أن أتمالك نفسي فبكيت وأنا أمسك كتفَ صطُّوف، التفتَ إليَّ السَّجان وأمرني أن أستلقي على الأرض، ووقع صطُّوف أرضاً وبقيَت يداه معلقتان بالباب، أخرج الأصفاد من جيبه وكبَّل يديَّ للخلف ثم سلخ لحم فخذي وظهري بأربعين كبلاً جعلتني أمسح كل دماء صطُّوف بقميصي، وسكنتُ تماماً بعد أن ضربني على أذنيَّ بالكبل عدَّة مرات.

نزفَ صطُّوف دماءً كثيرة غطت كل جسدهِ، بصقَ علينا السَّجان عدة مرات ثم عاد ليضرب صطُّوف على فمه، فتح الأصفاد فسقط صطُّوف فوقي. ثم قال: الآن لن يؤلمك ضرسك أبداً.. وقبل أن يرمينا خلف الباب وصل سجَّان آخر وضع رجله على ظهري وقال هذا على التَّحقيق، عصبَ عينيَّ بالقماشة السَّوداء، إنها العَتمات مرة أخرى، لم يعد لممالك وجعي أسماء، الموت بات أمنيةً جميلةً، فمدينتنا كلها تموت، والمدن لا تموت حين تتهدم شوارعها وتتفتتُ مبانيها، المدن تموت حين يحكمها الغرباء.

وها أنا مرةً أخرى ذاهبٌ للتحقيق، وهذي نواقيس البؤس المثقلة

بالعطش قد جاءت مرةً أخرى. التَّحقيق، لقد اشتقت لكل شيء فقدتُه في غرف التَّحقيق بعضي وأجزائي وحياتي وما كنتهُ قبل أن أعرفها.

رماني السَّجان عند المحقق وأنا ممزوجٌ بالدَّم، تلعثمتُ عدَّة مرات حتى في نطق اسمي فزادني السَّجان من سياط القهر على ظهري وقدميَّ حتى بكيت، ولم أعد أجيبهم سوى بالعويل، كانت رجلي متورمةً جداً ومصابةً منذ اعتقالي الأول، أسئلةٌ قليلةٌ مرَّت كأنها أحقاب من هلع، ضربني السَّجان خلالها على رأسي بالكبل فلم أعد أعرف ما أقول، فأمره المحقق أن يعيدني للزنزانة، رماني السَّجان خلف باب زنزانتنا ومضى.

والحقيقة أن جُلَّ أساليب التَّعذيب كانت اعتباطية الوجود، كانوا يبتكرونها في أوانها وكثيرٌ منها كان يحصل لمرَّةٍ واحدةٍ فقط، إنها كالأجيال التي تطالب بالحريَّة تأتي لمرة واحدة ثم تموت كلها، ويحتاج الزمن وقتاً طويلاً كي يُنضج مثلها مرَّةً أخرى. وكان كل ذلك يقع لأننا كنا البقية التي مازالت على قيد الحياة بعد أربع سنوات من الاغتيال لجيلٍ بأكمله في عتمات ظلمهم الذي لا قعر لقاعه أبداً.

عندما صحى صطُّوف قليلاً كان يَحرثُ الأرض من وجعه بصمتٍ أليمٍ.

في صباح اليوم التَّالي كانت عيون صطُّوف تنزف دماً، والرَّزيَّة التي أبت إلا أن تكتمل أسىً. صادف أن تاريخ ذلك اليوم كان الثَّالث من حزيران

عام 2014، ألفان وأربعة عشر ميلادية، وهو يوم انتخاب طاغية البلاد، وكان علينا أن ننض آخر ما تبقى من ذواتنا، وننصاع لأوامرهم ونقف جميعاً لنهتف باسم سفاح العصور ونفديه بأرواحنا ودمنا داخل زنزاناتنا، لتأتي ضحكاتهم وتشنق ما تبقى من عمرٍ في دواخلنا، أما صطُّوف فقد وقف وهو ينزف دماً من عينيه ويحرك يديه الرخوتَين بعد أن فقد وجهه، وراح يهتف بشفتيه اليابستين باسم السَّفاح الأول الذي أطفئ له ضوء عينيه، وراح يبكي وهو يردد بالروح والدم نفديك.

قبل سنتين عام 2012 ألفان واثنا عشر، في تموز وقع انفجارٌ كبيرٌ في دمشق قُتلَ فيه عددٌ من كبار مجرميهم، فظن بعض المعتقلين في القيادة العامة أن دمشق تتحرر، وأنهم بعد ساعات سيكونون في السَّاحات، فهتفوا للحرية من داخل الزنزانة، بقوا أكثر من نصف ساعةٍ وهم يهتفون، والمجرمون في حالةِ ارتباكٍ شديدٍ، كان بينهم أربعة أخوة وثلةٌ من حماة وستة من غوطة دمشق، لم يعاقبهم أحد ولم يكلمهم أحد.

في منتصف الليل دخلَ ضابطٌ ومعه مجرمين آخرَينْ، فتحوا الباب، وكسر أحدهم مصباح الضَّوء الصغير، ثم دون كلمةٍ واحدةٍ أطلقوا عليهم الرَّصاص، ثلاثة بنادق آلية وستةٌ وثلاثون معتقلاً، بدَّلوا مخازن بنادقهم مرتين وأفرغوها بأجساد أولئك السُّوريين، وتكومت الجثث فوق بعضها، وسال الدم حتى وصل آخر الممر، كان لأحد الذين قتلوا قريبٌ من ذات قريته يعمل في السُّخرة ، استطاع بمعجزةٍ سماويةٍ أن يحصُل على قطعةٍ من قلب قلم رصاص، وسجل اسم الضابط والمساعدين وعشرة ممن قتلوا

على ورقة تبغٍ رماها أحد مسوخهم، وحين التقيتُه بزنزانة الموتى في اعتقالي الأول دسَّها في يدي وفي صباح اليوم التَّالي فارق الحياة، ومازالت الورقة حتى هذه اللحظة قرب هذي الأوراق التي أخط عليها طغيانهم بعد سنوات طويلة.

كل ذاك جعل كثافة الجراح تنحل بالعروق فيبدو الموت أجدر بنا ألف مرَّةٍ من ذاك المنظر الذي يهتف فيه مغدور لقاتله ويفديه بحياته وهو قد سرق للتو منه ضوء عينيه.

في مساء ذات اليوم أدخلوا أحد المعتقلين لزنزانتنا عارياً. كان يرفع يديه عندما يتحدث معه أي أحدٍ مخافةَ أن يُصفع لعمق الرعب في داخله، تلعثم حتى وهو يخبرنا باسمه، سألته ما هو عملك قال : أنا طبيب أشعه، قلت له هدئ من روعك لا تخف، والحقيقة أن كمَّ البلاهة في قولي هذا أكبر من أن يتصورها العقل.

بعد دقائق طلبوه. عرفت من ملامحه أنه لن يحتمل التَّعذيب، ولم يكن أحد ليصدِّق أن الأصوات التي خرجت منه تخرج من بشر، أعادوه بعد ساعة، كان لا يشبه ذاته قبل أن يطلبوه، كسروا إصبع رجله وشقو أذنه وكسروا له ضرسين، وعيناه لا يرى بهما، لم يحتمل هول الصدمة والألم، فقدَ إدراكه وراح يصرخ داخل الزنزانة.

أخرجوه ثانيةً، ربطوه ببساط الريح ثم غسلوه بماء بارد، أعادوه عارياً

ومعصوب العينين ومكبلاً للخلف. رمى لنا السَّجان الأصفاد، وأمرنا أن نكبِّلهُ بصنبور مياه المرحاض، ثم صرخَ على البقية كي يتبولوا عليه. الخامسة صباحاً أيقظني معتقل يقول: قم، قم، المعتقل الجديد مات.

إن كان السَّجن ينفي الحرية، فالمعتقل ينفي الوطن.

فليس هناك وطنٌ طالما أن هناك معتقل.. لأنَّ المعتقل يعكس وجه السُّلطةِ المتغوِّلة، السُّلطة التي تبتلع الدولة والمجتمع وتختصر الوطن بأسماء رموزها الذين يكونون مصدر الشَّرعية المزيفة لكل أنواع الإجرام بحق البشرية.

إننا في سوريا لا نفتقر إلى قانون نحيا تحته فقط، بل إلى اعتبارٍ يعيد إلينا شعورنا بأننا مازلنا نمتلك بعض ملامحنا التي شنقوها حين اغتالوا جيلاً تجاوز ذاته لأجل وطنه فهتف بصوتٍ واحد لن نركع ومات في محراب الظلام وحيداً، وكم رأى موتِه شرفاً حين راح يسمع ضجيج هذا العالم الأبله وهو يساوينا بالسَّفاح.

إن التَّاريخ يسرد في صفحاته أن الفقراء في كثير من دول العالم ومنذ مئات السِّنين كانوا يرتكبون عن عمد بعض الجنايات كي يدخلوا السُّجون التي توفر لهم الطَّعام والشَّراب ومكان الإقامة ... وكم كنت على يقين أن الجدران والسُّقوف التي كنا نتعذب تحتها كانت مملوءة برغبةٍ عارمةٍ بأن تهرب هي ذاتها من هناك، رغبةٌ تفوق رغبتنا بالهرب من موتنا المحتوم.

إن المأساة الفادحة في سوريا لا تكمن في صراعٍ مسلَّحٍ أو اقتتالٍ طائفيٍّ أو تمردٍ عامٍ. إنها تكمن في صراع المجتمع الطَّبيعي مع السُّلطة ما قبل البدائية، السُّلطة المتوحشة التي لم يمر عليها عامل الزَّمن، السُّلطة التي لازالت تحرق الأحياء وتغتصب الحوامل وتقطع الأجساد وتغتصب الأطفال. وهذا ما لن يكون بعد اليوم أبداً.

خلف الطَّاولة الصَّغيرة في هذا المقهى العتيق، لم يكن هناك شيء يخدشُ وطأة الصَّمت سوى صوتِ ارتطام قطرات المطر ببلور النَّافذة الوحيدة التي كنت من خلالها أرقبُ عطش النَّوارس البعيدة، وهي تعانق هذا البحر الفسيح، في هذا المساء الذي خلت شوارعه من المارة.

النَّسمات المنُهكة حركت الأوراق التي اقتربت من فنجان القهوة الفارغ. وأنا أبادل النادل الكَهل نظرات الشُّرود والانتظار.

وها أنا اليوم تفصلني قارتان عن جدران زنزانتنا الثَّالثة، وما زلت كل ليلةٍ أحلم بكل أولئك المغدورين الذين باتوا يسكنون في داخلي ويشاركوني لُفافة التَّبغ الهاربة من مواقد الرماد.

حين رتبتُ أوراقي داخل حقيبتي وهممتُ بالخروج، تمتم إليَّ النَّادل المنتظر رحيلي بلغتهِ التي لا يفهمها حتى أشباح الكلمات مشيراً إلى ورقة قد سقطت مني.

أمسكتُ الورقة. والعبارة الأولى التي وقعت عيناي عليها كانت: "ذاك العجوز" .. جلست مرةً أخرى خلف الطاولة ومضيتُ أقرأ:

كان قد مضى أسبوعان على مأساة صطُّوف. تورَّم فيها فمهُ حتى غطى

كل وجههِ وعزف عن الطَّعام. بينما ازادت الحُفر في رجلي المصابة. وأمسيتُ أُعاقبُ صباح مساء لأني لم أعد قادراً على النُّهوض كلما فتح المسعورون الباب.

لم يبقَ في جسدي مكانٌ يتسع لندوبٍ جديدة.

بعد أيام بين الموت والحياة أصبحت ساقي تنزُّ قيحاً ودماً دفعني أن أمزِّق قميصي قطعةً قطعةً وأضمدها حتى بقيت دون ثياب.

وفي منتصف ليلةٍ كانت تمر كأسراب اللُّهاث الهارب من وجه الموت، فتحَ السَّجانُ الباب، ونادى على صطُّوف ثم نادى عليَّ بصوتٍ طاعنٍ بالعراء، ظننتُ لبرهةٍ أنهم سيعدموننا، لكنه تابع عواءه وهو يقول ستذهبان للمشفى، صحى صطُّوف كأنه قد عاد من الموت، نظرت إليه كان وجهه مخيفاً جداً، ضرب المساعد الباب بالكبل وهو يشتمنا ويستعجل خروجنا من الزنزانة.

خرجنا حافيين وصطُّوف يتكئ على بعضه، وبمجرد اقترابنا منه رفع كبله وضربني على ظهري، حاولت أن أحتمل كي لا أثير نقمته لكني لم أستطع، صرخت: آه يا رب! فأخذ يُحرقُ رأسي وصدري بسوطه حتى سقطتُ أرضاً، وعاد يضرب صطُّوف وهو يصرخ : مشفى؟ تريدان مشفى؟ أنتما يجب أن تدفنا الليلة.

كبَّلَ أيدينا للوراء، عصبَ عيوننا ومشينا ونحن في انحناء الركوع، وأنا

دون ثياب سوى سروالٍ داخليٍّ قصيرٍ.

في بهو المقر الأمني ربط المساعد أصفادنا بأنبوبٍ حديديٍّ يمر بجدار المبنى، وأزالَ العُصبتين عن عيوننا وراح ينفث دخان سجائره في الهواء ويتحدث مع مشوَّهٍ مثله.

سمعنا صوت سيارة عسكريةً قديمة تُستعملُ لنقل العتاد والجنود تقترب منَّا، فتحوا بابها الخلفي وجاء المساعد يصرخ فينا كي ننهض، وما إن وقفنا حتى ركلنا فأسقطني فوق صطُّوف، وحين أردنا أن ننهض مرة أخرى، أخذَ يضرب صطُّوف بالكبل على فخذيه وظهره وهو يتلوى تحت حشود الألم، وصطُّوف يتلفَّت بالاتجاه الخطأ بعد أن فقد بصره، وهذا كان يجعله فريسةً سهلةً للكبل الذي أحرق جسده كله، وحين لم يعد يشعرُ بشيءٍ وضعَ رجله فوق رقبته وقال له: مُت بالمشفى، لا تعد إلى هنا . لا أريد أن أراك مرةً أخرى.

التفتَ إليَّ وراح يضربني بالكبل على بطني ثم قفز في الهواء ووقعَ بكلِّ جسده على معدتي ، فصرختُ وأنا ألملم شُحوب الموت واللُّهاث المقطوع، وعلا صوت ضحكاته مع مسخٍ مثله وهو يقفزُ فوق جسدي وأنا أقرب للموت من الحياة، عاد يضربني بالكبل، ثم أعطى الكبل لشخصٍ يقف بقربه، وقال له: جرِّب !

وها هي إيماءة رثاء أبناء الوطن.

كان ضيفاً عنده ليس أكثر، مولاي هؤلاء يكرمون ضيفوهم بلحومنا، تردد الضيف ابتسم ثم أمسك الكبل وراح يضربني به، ومع ارتفاع صرخاتي راح يزيد من قوته ويضحك.

كان ينظر في عيني صديقه المساعد وهو يستفسر عن مدى الاستباحة التي يمكن له أن يحصل عليها، وحين أومأ له المساعد بيده أن يفعل بي ما يشاء، تفتحت في داخله مكامن الشر وأحداق التَّسلط الممسوس، فأخذ يتلمظ وهو يمرر لسانه على شفتيه، ويُوسِّعُ عينيه مستغرباً من كم اللذة التي يحصل عليها من جراء توجعي واستغاثة نزفي وتوسلي له أن يتوقف، ويرفع الكبل أعلى ما يستطيع ويهوي به على جسدي وأنا أستغيث بوجوه الرِّيح ولوعة الرَّصيف الذي ارتدى دماءنا. عندما بدأت أغيب عن الوعي أخذ يضحك بأعلى صوته ويشيرُ لصديقه بأسى يغطِّيه زيفُ ابتساماته، لم يعد يشعر بشيءٍ.

أراد أن يلتفت لصطُّوف لكن صوت سائق السَّيارة يستعجلنا جعلهم يصرخون فينا كي ندلف داخل السَّيارة، بعد أن فكوا أصفادنا نهضت وأنا أرتجف من الوجع وهما يركلاني بأحذيتهم على خاصرتي ويضحكان بشدة.

كان عليَّ أن أُعين صطُّوف كي ينهض وهو شبهُ ميت، والحقيقةُ أن لحمه الذي تهتكَ تحت سياط الكبل جعله يستعين بآخر دفقات قوته ويقف، أسندته على مؤخرة السَّيارة ونزلت تحته كي أُنهضه، رفعته قليلاً فأمسى نصف جسده داخل السَّيارة المرتفعةِ والنِّصف الآخر خارجها، أردت

أن أدفعه كي يُدخل كل جسده داخل السَّيارة، لكن نتوءاً كان في أرض السَّيارة كَشط له لحم صدره فصرخ من الوجع، وفي ذات اللَّحظة هوى المساعد المسخ بالكبل على ظهره، فجأر داخل صوت أنَّاته التي أسقطت كلَّ الآمال الهلامية الرحيل.

دفعتُه بكل قوتي فأصبح داخل السَّيارة، أردت أن أصعد، لكن المساعد القميء انتظر لحظة قذف جسدي داخل السَّيارة وأمسك بسروالي الداخليَّ ونزعه عني، وراح يضحك هو وثلاثة اجتمعوا معه، ارتميتُ داخل السَّيارة وأسلمتُ نفسي للبكاء، كان رأسي على رِجْلِ صطُّوف الذي ظننته فارق الحياة، ها أنا عارٍ من جديد، كان العُري يفتنني، يَبثُّ في داخلي أهازيج أنهم انتصروا على إيماني أنهم زائلون يوماً.

رمى لي المساعد المسخ سروالي بعد أن قطعت السَّيارة أمتاراً قليلة وهو يشتم أمي وعائلتي وكل من يعرفني، نظرت إلى صطُّوف فإذا هو يتنفس، إنها معجزةٌ أنه ما زال على قيد الحياة.

كانت السَّيارة مغطاة بقماشٍ سميكٍ كأنها خيمةٌ كبيرةٌ، وفي سقف الغطاء كانت هناك فتحةٌ طويلةٌ كنت أرى من خلالها نهايات الأشجار الباسقة وأحجار المباني المرتفعة، وبدأت السَّيارة تبتعد.

آه، ليتها تسلك درباً إلى السَّماء كي لا نعود إلى هناك، بعد دقائق ليست قليلة توقف السَّيارة، وبدأوا يتبادلون الحديث عن شراء بعض

السَّجائر، وهناك نزلوا وبقيت استجمع كلَّ بصري كي أرى كلَّ ذرةٍ يمكنني أن أراها من خلال الفتحة التي كانت تربطني بالحياة.

تنفستُ بعمق فشعرت أن أضلعي تلوكُ رئتي وزفرتُ من الألم، لكني أعدت ذاك مرةً أخرى، لقد خامرني شعورٌ جعلني فوق الألم، إنَّه وَقدُ الحياة، إنها رائحة الشَّوارع التي كبرت وأنا أعدو بينها، تنفستُ ملئ رئتيَّ مرةً أخرى ، آه إنها رائحة الشَّوارع في آخر ساعات الليل حيث الهواء يحملُ القُبلاتِ بين العشاق ويوصلها بينهم وهي ماتزال حارةً تحمل أشواق الوسائد.

وراح الوقتُ ينبش أكداس الحنين في داخلي، وصوتٌ خافتٌ يهمس لي أني ما زلت حياً في مكان ما، وأن طفلتيَّ الآن تراقبان السَّماء وتنتظراني كي أعود، وأني رغم كل وثباتِ السَّعير في داخلي ما زلت بشراً ككل البشر، بقيت مستغرقاً في شرودي إلى أن بدأ جسدي يبرد، وراح العذاب يغرس أنيابه في وهني من جديد.

أردت أن أتأكد من أن صطُّوف مازال يتنفس، نهضت قليلاً لكن شيئاً ما كان يدوس على قدمي، نظرت مدهوشاً فإذا بحذاءٍ كبيرٍ أكبر من أحذية البشر الطبيعيين تنتعله رِجْلٌ كجذع شجرة البلوط، تابعتُ نظري للأعلى، كان رجلاً ذو شاربٍ ضخم جداً كأنه أجمةٌ برية.

عيناه ساكنتان تماماً، وضعَ وجههُ بين يديه وبندقيته بين رجليه وهو

جالسٌ على المقعد الخشبيّ الضَّيق الموجود على حافتي السَّيارة، ضخامة جثته جعلتنا نظن أنه جزء من السَّيارة، وصمته الشَّديد كالجدران لم يدعنا نفكر كيف أننا دخلنا السَّيارة دون أصفاد، عندما التقت عيناي بعينيه، كان وجهه كريهاً ومظلماً، وضع إصبعه الذي بدا كأنبوبٍ طويلٍ أمام فمه، وأشار لي أن أصمت، ولم ينطق بحرفٍ آخر.

حين وصلنا للمشفى تركونا ننتظر عدة ساعات داخل السَّيارة، نحن بالنسبة لهم كالأشياء تماماً، لا يفكرون بموتنا أو حياتنا، لا يعنيهم ما نحن ومن نكون، المهم فقط أن لا يشعروا أننا نرفض أي شيء أو نعترض على أي شيءٍ، مؤمنين بعمق شديدٍ أننا ولدنا ونحن نحمل حُبَّ طاعتهم وبقاءهم إلى الأبد.

قبيل الصبح بقليل كان كل الدم الذي نزفناه في أرض السَّيارة قد تجمد، وصطُّوف مستغرق في هذيانه الذي فصله عن هذا العالم كله، رفع أحدهم غطاء السَّيارة من الخلف ونظر إلينا، كان يدخن ويحدِّقُ في جروحنا، وينظر إلى وجه صطُّوف، نخزني بعصاه على رجلي وقال : أنزل رفيقك.

دعوتُ الله ألاَّ يضربنا أحدٌ ونحن نغادر السَّيارة، أنزلت صطُّوف فسقطَ أرضاً كأنه جثةٌ هامدةٌ، والمساعد الجديد ينظر إلينا ولم يقل أي شيءٍ.

شار لي برأسه كي أتبعه، أمسكتُ صطُّوف من كتفه ومشينا، بدأنا ندخل مبنىً أعرفهُ مذ كنت طفلاً حولوه هم لمشفى، كما حولوا الحدائق لمقابر، والمدينة إلى ركام، والبشر إلى جثثٍ مفقودة بعد أن دفنوها في قيعان الأنهار.

أشعلَ مصباحاً يدوياً ونحن ننزل إلى قبوٍ تنبعثُ منه رائحةٌ قاتلةٌ، أدخلَنا إلى غرفةٍ فيها سريرٌ واحدٌ من حديد، ليس فيها نوافذ ولا أغطية ولا أيٌّ شيءٍ آخر.

أشار إليَّ لأحمل قطعتين من ورق مُقوى وأضعهما على السَّرير الحديديِّ، ففعلتُ. ثم أمرني أن أُمدد صطُّوف على السَّرير، ثم صرخَ عليَّ كي أتمدد عكس اتجاه صطُّوف وكبَّلَ أيدينا التي التقت في منتصف السَّرير معاً، ثم كبلها بالسَّرير أيضاً، وقبل أن يمضي رمى لنا قارورة ماء صغيرة، ثم تركنا في العتمة ورحل.

ليلاً صحوتُ على وقعِ أصواتِ صريخٍ لأناس كأنَّ جلودهم تُسلخ، وعويل ملأ أصداء السَّماء، واستغاثات ونشيج وشتائم تحتارُ الملائكة كيف ستكتبها، وفجأةً وأنا بالكاد أستطيع النهوض فُتِحَ الباب كأنه قد خُلِعَ من مكانه ودفعوا بكل قوتهم شاباً سقطَ على الأرض كأنه قطعةٌ منها، عارياً من كل شيء، مكبلاً للخلف معصوب العينين وهو ينزف من فخذه وخاصرته، والدم غطى جسده كله.

واندفع خلفه عدةُ جنودٌ مدججين بالسِّلاح وهم يكفرون ويشتمون وبين كل أولئك المسوخ تقدم أحدهم وهو يصرخ بكل ما فيه: أين هو؟ أين هو؟ دخل إلى غرفتنا وهو محمرُ العينين تبدو عليه ملامح الضِباع البرية، أمسك الشاب من شعره وراح يسأله: أين وسام؟ أين وسام؟ أين أخذتموه؟

ثم أخذت البشاعة تتبدى كما لم أرها في كلِّ حياتي، سأله: أين جرحك؟ أين هي الرَّصاصة؟ والشَّاب المسكين يئنُّ ووجهه المهروس أضاع كل ملامحه بعد أن اختلطت أجزاؤه ببعضها.

سحب المسخ الضخم حربةَ بندقيته، وغرسَ نصفها بفخذ الشاب المستلقي على الأرض وراح يحركها يميناً وشمالاً، والشَّاب أخذ ينزف من أنفه وعينيه وهو يتقيأ، بينما انحبَست كل دماء جسده في وجهه وهو يصرخ صُراخ المحروقين.

أما بقية الجنود الذين تجمعوا حوله فلم يتوقفوا عن ضربه والبصاق عليه لحظةً واحدةً، ولم يُشفَ غليلهم عند هذا الحد، فتقدم مسخٌ آخر منهم وسحب أنبوب تنظيف البندقية، وراح يسأل عن جرح الشاب أين هو، فأشار له أحد رفاقه هنا هنا في خاصرته. فقال: الآن سيزعج صوتك هدوء الإله.

ثم غرس نصف أنبوبه في خاصرة الشاب المسكين وراح يخرجه ويدخله والشاب يجأر من كل خليةٍ منه، والبقية يركلونه على وجهه والدم

خرج كأنه يُصبُ من صنبور ملأ أرض الغرفة. ثم غاب الوعي تماماً.

عندها أمسك الجندي المسخ بندقيته وراح يضربه بها بكل قوته على جمجمته وصوت عظام رأسه كان يطغى على كل أصواتهم وعواءهم وحضورهم المخجل في هذا الكون كله.

كسر له رأسه عدة كسور والشاب يحتضر ورأسه ينتفض بينما تصلّب جسده كله ثم بدأ يشخر كأنه شاةٌ مذبوحة، طعنوا كل مكانٍ في جسده ثم تركوه وخرجوا. بقي الشَّاب أكثر من ثلاث ساعات وهو يموت وينزف.

منتصف الليل ارتجف بشدةٍ وأصدر صوتاً غريباً ثم أسلم الروح. المرعب أكثر، أن كل هذا وقع في المشفى.

في صباح اليوم الثَّالث صحوت على صوت رجلٍ يلبس ثياب الأطباء يقف فوقنا، نظرت إليه ببرود شديد، شعور طاغٍ داخلي لم يعد يخاف من أي شيء، ولم يعد يكترث لأي شيء، كان يضع سماعات الأطباء على جسد صطُّوف، ويتحدث إلى مجرمٍ آخر بقربه، لم أسمع شيء من حديثهما، نظرت إلى مكان جثة الشَّاب فإذا هي ملقاةٌ مكانها كأنها أحد أحجار تيك الغرفة الباردة.

الرجل الواقف قرب الطبيب ركلني على رجلي كي أنهض، ثم فك الأصفاد عن يدي، وأزال أصفاد صطُّوف ثم أمسكه من رجليه وجره فسقط على الأرض وجره إلى زاوية الغرفة وهناك وضعه، ثم مد يده وأغمض له

عينيه وتركني دون أن يكبّلني ومضى.

وهكذا مات صطُّوف دون مراسم تشييع ودون أن أعرف اسم عائلته ودون أن أمسك يده في لحظاته الأخيرة. مات صطُّوف كما يموت الحنين دون ضوضاء وعويل.

زحفت إلى مكان جثته، استلقيت عند قدميه وبدأت أحدثه كأنه يسمعني، أخبرته أنني سأكتب كل هذا يوماً، ووصفت له ملامح كل أولئك السُّوريين الذين قتلهم المجرمون غدراً، لأنهم كانوا خلاصة الوطن وأُباته وأعلامه ومناراته وتاريخه وحضاراته وأبناءه، وبقيتُ ساعاتٍ وأنا أحدِّثُ صطُّوف وأهذي حتى دخل عليَّ أحدهم وصفعني عدَّة مرات وأعطاني رغيف خبز وحبة دواء دون ماء.

في اليوم التَّالي صحوت وأنا في غرفةٍ أخَرى، تفقدتُ صطُّوف، لم أجده، كان هناك ثلاثة معتقلين وجثتين، وفي الزَّاوية المظلمة يقبعُ رجلٌ عجوزٌ يُجادل الموت الذي يرفضه كما الحياة، مُكوَّمٌ تحت سريرٍ حديديٍّ كبلوا فيه يده اليُمنى، وتركوا له الأخرى بعد أن اقتلعوا أظافره منها وكسروا له اصبعين فيها، لا يبدي استجابة لنهشات الألم وهو ينظر إلى كفِّ يده ثم يحركُ رأسهُ، يعضُّ على شفتيه، وتُظلم الأحقاب وهو يصكُّ أسنانه مرتجفاً من الوجع ليعانق البكاء، ومن بين ذاك كله تسفرُ ملامحه عن ابتسامةٍ يضرب بها أغوار ألمه ويشيحُ بوجهه عن جسده، يهرب من بشريته و هو مشمئزٌ من عذابه، عارياً من أي ثياب تستر جسده الذي أمسى

حُطام ظلالٍ ترسم درب الهروب المفقود.

في المساء حين دخلوا علينا كانت شيخوخة الشُّرود أبعد من صرخاتهم، لم ينهض منّا، طافت كبالهم وسياطهم على أجسادنا التي باتت بعيداً عنا تتأملنا خلف بوابات الكتمان الثَّقيل، وتحت خيوط العذاب كنا نحاول أن نتدثر بصدوع الجدران، أن نختفي بين شقوق الأرض التي كم احتضنت نظرات الانتظار، إلا ذاك الرجل العجوز، فرغم أنه كان يرتجف تحت وقع السِّياط إلا أنه لم يحاول أن يدرأ العذاب عن جسده بأي شيءٍ، الطَّبيب الذي أمسكَ يده بصق عليه فلاحت مرةً أخرى ابتسامةٌ من وراء ملامحه أدخلتني في دوامة من الحبُور، هذا الرجل يتعالى على وجعه وهو مهزوم أمامه حتى النُّخاع.

إنها المرة الأولى التي أعاين فيها معتقلاً يلتذُ بالألِم، رجلٌ يتنحى جانباً ليتركَ جسده يعانق الوجع القُحاف لوحده وهو الذي سيحملُ في النهاية هذي المجرات من العذاب البعيد.

سحلوا الجثث الميتة وأخرجوا المعتقل الثَّالث ثم ألقوا رغيفين من الخبز وقارورة ماء، وأغلقوا الباب فغرقنا بغمام الصمت، بقيتُ والرجل العجوز نتبادل صفير الصَّرخات وارتجاف الوقت المشنوق، نفحات الموت والصَّديد كان لها سحرٌ يطيلُ أنياب الجوع المغروسة في تاريخ هذه الجدران المتعبة، حَبوتُ حتى أمسكتُ رغيف الخبزِ ورحت أنهشه كأنه سَيفرُّ من بين يديَّ، ورغبةٌ عارمة بالبكاء كانت تجتاحني كلما كنت آكل

شيئاً، كنت منهمكاً بمضغ فتات الخبز حين حاول الرجل العجوز أن يمدَّ يده نحو الرغيف الآخر، أظافره مازالت تنزف قيحاً وصديداً وأصابعه المكسَّرة تورَّمت حتى بدت كأنها أيادٍ أخرى داخل يده، أمسكتُ بالرَّغيف وحَبوتُ نحوه، مددتُ يدي إليه، لم تُعنهُ بقية يده المهشمة وهو يعاين الأخرى المكبَّلةَ بالسَّرير، استندتُ على ذراعي وأخذتُ أطعمهُ وهو يفتح فمه كأنه يقتات رغيفه الأخير.

يرتجف ثم يبتسمُ وهو يخفي وجعه الذي لا يُطاق، همس لي بصوتٍ عميق: يكفي، وراح يشهق بالبكاء، رَويت له في تيك الليلة ما جرى معي، وهو يمسح عينيه كلما ذكرت لهم أسماء الشهداء المعتقلين، بقي صامتاً كل الليل.

في اليوم التَّالي مساءً بعد صمت طويل قال: ثلاثون عاماً، ثلاثون عاماً وأنا أنتظر هذا، كنت أعرف أن ما أنا فيه اليوم آتٍ. كان يهذي ويردد على مسامعي عنواناً كي أحفظه، ردده عشرات المرات ، مئات المرات وهو ينظر إليّ يزيد أن يتأكد أني حفظته، وكثيراً ما كان سعاله يبلل جسدي بقطرات الدم التي كانت تخرج مع أنين القهر الذي يورقُ تاريخاً من العذاب السَّاكن بين حروفه المنتظرة نهايته القريبة.

غفوت قرب ذاك العجوز طويلاً، وما إن نهضتُ حتى راحَ يردد العنوان ذاته، وأنا أنظر إليه، وإلى ذاك السَّقف الذي ابيضَّ كأنه قد شابَ من العذاب، فتحت قارورة الماء وسقيته منها قليلاً، تركت شفاهه بعضاً من

الدماء على أطراف القارورة، ما إن شربتُ بعده حتى أخذَ بالبكاء، يا للبكاء في تيك الصَّباحات كم كان بارداً ومتعِباً ومنصتاً لزفرات الموت التي تملأ كل شيء.

في ذاك اليوم عاد يكرر العنوان مرةً أخرى، حتى مللتُ الثَّواني وأنا أرجوه أن يتوقف وأعيده عليه كي يعلم أني حفظته لكنه لم يكن ليتوقف أبداً، رحت أبتسم معه وهو يعيد العنوان، بينما توقف هو قليلاً وراح يبتسم أيضاً، ابتسمتُ أكثر وأنا أقول له: لم توقفت؟ صمتَ طويلاً ثم قال: لقد نسيتُه أخيراً.. ثم مد يده نحوي فأخذتُها بين يديَّ، نظرَ في عيني وسألني: كم عمرك؟ أجبته: اثنان وثلاثون يا عماه، بكى وقال: يا ولدي أنت بعمر حزني.. أخذَ يعضُّ على شفتيه ويرتجف من الألم والبرد ويمسح دموعه وهو يبصق عمره الرَّاحل نحو الفراق الطويل.

ذاك الرجل كان رغم هرمه ورغم وحول العذاب التي غطَّت جسده مازال محتفظاً بقدرٍ هائل من وسامته، صمتَ قليلاً ثم عاد ليقول: أرجو أن تذهب إلى هذا العنوان حين تخرج من هنا، إني أشعر بموتي يسكن هذه الغرفة الباردة. حاولتُ أن أقول شيئاً، لكنه راح يكملُ: لن تموت هنا، ستخرج يوماً وحينها ستعرف كلَّ شيءٍ، أرجوك اذهب إلى هناك وستعرف كلَّ شيءٍ.

لم تمضِ سوى أيامٌ قليلةٌ حتى راح يرتجف في إحدى الليالي وهو يتألم حد الموت ويصرخ ويتكوَّمُ على بعضه ثم يرتعش ويغيب عن الوعي، تقيَّأ

الكثير من الدِّماء، مددت ساقي تحت السَّرير حتى يضعَ رأسه عليها وجلست عند رأسه وهو ينظر إليَّ كطفلٍ لم يتعلم اللُّغات بعد، كان خجلاً من عُريه، خلعت بقية قميصي ووضعته على وسط جسده كي يغطي به سوأته، هزَّ رأسه وراح يأخذ أنفاسه كأنه يغرق في بحر عميق، بعد ساعه أخذ يهدأ ويهدأ فتح فمه وهو يتنفس ببطء شديد، بقينا هكذا ساعات طويلة، غفوت وساقي تحت رأسه، حين صحوت كانت يده المفتتة فوق ساقي، بارداً ساكناً، أضاع أنفاسه في قلبي الذي غدا نعشَ وطنٍ رحل كل أبنائه لأنهم أرادو الحياة.

وضعت يدي على شعر رأسه الكثيف ورحتُ أغرس ملامحه في داخلي، عمَّاه أيقظ بكاءك وابقَ نائماً فأنا بتُ أخاف صمت الأنين، قبل المساء سحلوا جثته كأنه لم يكن هناك أبداً.

بعد أيامٍ طويلةٍ كنتُ في زنزانتنا من جديد، كانت هناك وجوهٌ جديدة وأخرى غابت ولن تعود. نحن أبناء هذي الزَّنازين المظلمة، نحن رَجعُها ووجيبها وملامحها التي لم تكنْ أكثر من حروف أسمائنا المحفورة في أخاديد جدرانها، نحن أشباح الموت التي صرخت بحرية الوطن المغدور.

بعد شهرين من ذاك كنت أمام القاضي في أحد أبنية مدينتي الميته. سألني: أنت وائل؟ لم أجبْ بشيءٍ، أتراه يدركُ من عرائي وتمزقي وجراحي ونزفي وبقيتي المفتتة أنني لم أعدْ أعرف من أكون؟! أم أنَّه ليس أكثر من مسخٍ مثلهم؟!

كررَّ سؤاله مرَّةً أخرى، لم ألتفتْ إليه، جلست على الأرض وضعت رأسي بين ركبتيّ واستسلمت للبكاء.

كبَّلَ أحدهم يداه بيديَّ ثم جرَّني إلى غرفة فيها رجل عجوز يرتدي ثياب الشُّرطة المدنية، وضع على الطاولة ورقةً وأشار لي أن أوقِّع، لم أفعل أي شيءٍ، فراح يشتمني ويلعنني ويذكر أسماء الكثير من الحيوانات، أمسك إصبعي وضعه على إسفنجة الحبر وطبع بصمتي على الورقة، ثم صرخ بي أن أذهب للجحيم، سحبني الشُّرطيُّ إلى خارج المبنى، فكَّ أغلالي التي كانت تربطني به، أعطاني هويتي ثم تركني ومضى.

كان الشَّارع فارغاً إلا من بعض المارة الذين كانوا يتحاشون أن يلمسوا أي شيءٍ مني، وقفت أمام دكانٍ أعرفه مذ كنت حياً، نظرتُ إلى وجهي من خلال انعكاس صورتي في البلور، كانت ذقني تلامس صدري.

جلست على كرسيٍّ فارغٍ، دقائق وجاء أحدهم يصرخ بي وينهرني كي أرحل من هناك، وهو يخبر جاره أنَّ هذي البلاد أمست مرتعاً للمتسولين أمثالي، والشَّمس المشرقة حرَّضَت القمل الذي تركتُه منذ عامٍ يعبث بجسدي كما يشاء.

الوجوه الصفراء باتت تتجول دون أصحابها، وأصوات الانفجارات كانت تخطفُ بريق الموت، والجنود الذي يخونون الوطن حتى بأنفاسهم يجعلون رائحة كل شيء تكتظ بالقيئ.

عندما التقيت ابنتي أمام عمارة بيتنا لم تعرفني، سألتني" من أنت؟ أين أبي؟ بكيتُ طويلاً ثم جأرت بكل قوتي وأنا أخبرها بأني أبوها الذي أوصلها للمدرسة قبل عام مضى، ابنتي الأخرى وقفت تتلمسني تلتفت حولها وتبكي.

بعد ثلاثة أشهر كنت بالكاد استعدت عافيتي، ولم تعد المدينة التي مضى عمري كله فيها تعرفني ولم أعد أعرفها فالقبح سكن حتى ذرات الهواء هناك، وأصوات الأغاني التي تمجد السَّفاح كانت تدعوني للإقياء والانعزال، والجنود الذين يلبسون ثياب حماة الوطن تفوح منهم رائحة الخيانة والعمالة، خدمٌ عند الغرباء، أُسودٌ على الأطفال والنساء.

وفي مساءٍ خبَّأهُ الضباب بين جنباته، كنت عائداً من زيارة صديقٍ لي، وإذ بطفل من أطفال جيراننا يهمس لي أن ثلةٌ من الجنود ينتظروني أمام بيتنا، يبسَت أطرافي وجفَّت الكلمات في فمي، نظرت إلى بيتنا من بعيد، عرفت أنها آخر مرةٍ سأراه فيها، رجعت هارباً وأنا أحسبُ أن كلَّ امرئٍ على وجه الأرض يبحث عني، وصليل الوقت بدا مخبوء الشهقات.

بقيت خمسة أيامٍ مختبأً عند أحد أصدقائي، إلى أن حصلتُ على أوراق ثبوتيه باسم رجلٍ ميت.

وفي ذاك الصباح الممطر ركبتُ السَّيارة المزدحمة بالأطفال والنِّساء والعجائز وبدأنا رحلة الخروج الأخيرة، وفي كل مرةٍ كنا نقف فيها للتفتيش من قبل المسوخ كنت أفقد قسماً من دمي، ست ساعاتٍ مضت عليَّ كأنها

ستة عصور، حين قطعنا الحاجز الأخير ضحك السَّائق وهو يقول وهذه زنزانتك الجديدة، كان يعرف كل شيءٍ عني.

حين بدأت الأعلام الخضراء تخفق أمامنا في البعيد، تجمد جسدي في داخلي وملأتني حاجة عارمةٌ للبكاء، والدُّموع راحت تكسر أحداقي وتنساب على ترهُّل الأمنيات في بقيتي، كأني أعرف كلَّ سوريٍّ هنا، تاريخ من الجفاف ابتلَّ بغتةً حين وصلتُ إلى هناك.

على الحاجز الأول التَّابع للثُّوار، سألني الجندي عن أوراقي فقلت له وأنا أبتسم إنها ليست لي، وأخبرته بكل براءةٍ أني سأرميها لأنها أوراقٌ مزورة، فأنا معتقل عتيق ورائحة الزنازين هويتي الأبدية.

لم يبادلني ذات السَّرور، وطلب مني التَّرجلَّ من الحافلة. وبصوته الذي كان يدلُّ على أنه مازال غضاً قال لي: كلكم تكذبون وتدَّعون أنكم مناضلون وأنت لست أكثر من عميلٍ جديد، من الذي أرسلك إلى هنا؟ من؟

غَرُبتْ الكلمات في فمي وازدادت وتيرة أنفاسي وأنا أقسم له أني كنت معتقلاً لمرتين وأنه يستطيع أن يشاهد مظاهراتنا حين يشاء، لم يمهلني حتى أكمل.

رفع يده في الهواء وهوى بها على وجهي، ودوَّىَ صوتُ صفعتهِ وأنا مشغوف ببلاهة الدهشة، التفتَ نحوي كل ركاب الحافلة، ثم رفع يده الثَّانية وأسدل ستائر النُّكران على قلبي حتى آخر العمر وصفعني مرةً أخرى.

تراجعتُ خطوتين للوراء ورحتُ أمسحُ قشعريرة الأحلام الأخيرة، والتفَّت حولي ظِلالُ كل أولئك الأوابد الذين مضوا هناك، وليس ثمة شيءٍ سوى الحريق الذي سرى بأوردتي وهو يبتسم من صراخي الأعزل الغارق في يباسٍ سحيق.

جلست على حَجرةٍ صغيرة، أتحسسُ تضاريس الخذلان، وتمتمات الخطوات المعلَّقةِ بأجساد الحكايات الميته، وارتجاف جسدي وأنا أطير بالأرجوحة الأولى، ودموع الأب الذي ودع طفله بعد أن تبدد بين يديه، وظلٌّ ودود المثقل بالغيوم وخيوط الدمع التي تعانق أعصاب البسمات، والمقدَّم المصلوب دون سماء من رعشات، وشهقات عبد الحي المحترق بلهفة ارتشافٍ لم تأتِ، وزوجةُ بشير التي تخيط غبار الحزن بدموع الأطفال، والأصابع التي بقيت في زنزانتنا وهي تلعق آخر بقايانا، وأضراس صطُّوف الموشاة بالعمى المجدول بموتٍ وحيدِ.

ورحت أعود رويداً رويداً نحو زنزانتنا الأولى حيث كنا نُخبئ جثث رفاقنا لنتقاسم حصتهم من الطَّعام كي لا نفنى، واختبأتُ في العتمات بين ملامحِ كل أولئكَ السُّوريين الذي لم يتركوا خلفهم سوى الوطن ورحلوا دون أسماء ودون مقابر ودون وداع أخير، وأخذت أتكمش بثوب الظَّلام أكثر وذويت هناك حتى استحلت إلى رماد كل ما يملكه هذه الكلمات.

انتشلتني من بين حسراتي أصابع النَّادل وهو يدقُّ بها على باب المقهى ويشير إلى ساعته، ابتسمت له معتذراً، حملت أوراقي وخرجت إلى الشَّارع

المبلل بالمطر المختبئ تحت ضباب خجول.

لقد بقيت على موعدي ساعةٌ واحدةٌ فقط، حين ولجت داخل الحافلة كان الدفء مشوباً برائحة الزِّحام، وتَرقُّب المحطات، والمطر الذي يتشبثُ بالنوافذ كان يزيد أبعاد الثَّواني فتعود التَّفاصيل أكثر قرباً من الوحدةِ التي تتجول في أرجائنا حين نكون غرباء.

لم يمضِ وقتٌ طويل، حتى وصلتُ إلى محطَّتي الأخيرة، وها أنا أمام بيت ذاك العجوز الذي بقي في غرفة المشفى البعيد حيث كنَّا معاً، لقد أراد قبل موته أن أكون هنا يوماً، إن طيَّات الأعوام الطَّويلة تمتص بقايا كلِّ أولئك الذين يغيبهم الموت، إلا أن أصواتهم وكلماتهم وعباراتهم الأخيرة تزداد عمقاً وغليلاً كلما شاخَ الدهر فينا.

المبنى الرمادي العريق كان يضجُ بالزخارف الأوربية التَّاريخ، والبوابة التي بدَتْ كأنها لا تُفتح أبداً تخفي خلفها ما أرادني ذاك الرجل السُّوري الشهيد أن أعرفه.

على باب البيت فتحت لي سيدةٌ إغريقية الملامح بدَتْ كأنها بعض أجزاء هذا المنزلِ الكبير، ملامحها العتيقة وحفنة الكلمات العربية التي ترددها تُوضحُ أنها أزهقت سنوات من عمرها بقرب ذاك الرجل العجوز الذي افترش ساقي قبل أن يموت دون أحاديث النُعاة.

حين تتابعَتْ خَطواتي داخل ذاك المكان البديع، كان الصَّمت السَّديم

هو كل ما يُضادُ رائحة الثَّراء التي تفوحُ من كل شيءٍ، اللَّوحات المعلَّقة على الجدران تختزنُ تاريخاً غارقاً بنعيم الاكتفاء، والرفوف التي تزدحم بالأواني الخرافية تضجُّ بسِماتِ الغِنى المهملِ هنا وهناك، والمُخمل المنداح في الزوايا يعانق كسل السَّتائر المسدلة كأنها لم تُفتح أبداً والأضواء الخافتة تبعث في الروح هدوء الصمت.

بإيماءةٍ رصينةٍ من رأسها قادتني تيك السَّيدة عبر ممرٍّ طويلٍ تكاثرت فيه مظاهر الرَّخاء المديد، حين وصلنا إلى الغرفة الأخيرة فتحَت لي الباب بوقارٍ حادٍّ وأشارَت لي بالدخول، كانت هناك منضدةٌ باذخةُ الحجم ليس عليها أيُّ شيءٍ سوى مُغلَّفٍ وحيد، الكرسي الذي خلفها فاحش الرفاهية، لم يكن هناك أي مقاعدِ سواه، مصباحٌ صغير في زاوية الغرفة يزيدُ من اختلاط الظَّلام بالضَّوء، غابت السَّيدة الوحيدة قليلاً ثم عادت وهي تحمل معها كأس ماءٍ وضعته على الطاولة، أغلقت الباب واختفت، ما زلتُ أخاف من الغرف المُغلقة، أفكر كيف يمكن أن أهرب من كلِ مكانٍ أكون فيه.

فتحتُ المُغلفَ وأنا متوجسُ النظرات، أمسكت الورقة الأولى ورُحتُ أقرأ ما كتبه ذاك العجوز الذي فارق الحياة وهو يتوسد ساقي بعد أن ترك ملامحه في داخلي إلى الأبد:

"في هذا البيت أمضيتُ نصفَ عمري، وكلَّ عذابي، وبقيةَ انتظاري حتى جاء ذاك اليوم حين رأيتُكم تهتفون للحرية في دروب الوطن، يا لخلسةِ النَّظرات وهي تربتُ على أكتاف الهتافات، خطواتكم أزاحت السَّتائر

المُسدلة على عزلة الروح التي أحالتني ركاماً من أنات الليل التَّائه عن يقظةَ الضِّياء.

قبل ثلاثين عاماً، في تلك الليلة الغابرة كنت مع بعض أبناء جيلي في بيتٍ منسيٍ حين داهم المجرمون اجتماعنا الأخير، قُتلَ اثنان من رفاقنا، ونجحتُ أنا في الهرب نحو بيتي الذي لم أره بعد تيك الليلة، وخوفاً من أن يكونوا هناك تسللتُ من فوق السُّطوح، ومن هناك، من حيث توقف العمر في تيك الثَّواني، رأيت زوجتي سُعاد مُدماة الوجه عارية الجسد مذهولة الخطوات بين نهشات ضَحكاتهم وصفعاتهم وهي تستنجدُ بي وتبحث بينهم عني، آه يا وجع أوردتي! أخفضت رأسي وأنا أبحث عن قرابين أقدمها للخذلان.. رباه لم جعلتني أرى ذاك؟! ملأتني رغبة بحجم السَّماء أن أعدو نحوها كي تعرف أني مملوءٌ بها وأني أحبها أكثر من أي شيءٍ عرفته في حياتي لكنني جَبُنت، عدت أنظر إليهم وهم يجرونها ويركلونها حتى اختفَتْ بينهم إلى اليوم، سعاد يا روحي المُنهكة الجذور، ضربتُ رأسي بالجدار عشر مرات، وجاء النَّزف مُثقلاً بالخطيئة والنكران.

مرت الثَّواني كأنها عصورٌ من حرائق، وخسران مزحُومٍ بعويلٍ مذبوحٍ، بقيتُ على ذاك السَّطح حتى اقترب الصَّباح، نزلتُ وأنا مبتور العبرات باهت الرَّذيلة وكثيرون يصرخون في دمي وأنا أبحث عن ظلّي، ماتت الشّتاءات في داخلي، أرتطم ببعضي وأنشجُ مواسم الشَّوك التي استحالت لغاتي.

يلعنني ارتعاشي وأنا خَجِلٌ حتى الموت من صرخات سعاد، بعد أيام

قليلةٍ كنت خارج الوطن، عرفت بعد سنوات أن سُعاد توفيت في عتمات سجونهم، ماتت سعادُ بعد أن أخذتني معها، سكنَت في داخلي حيةً وأنا ميتٌ بعد خيبتها بنجدتي، أزهقتُ كل حياتي وأنا أتغلغل في ضفائر كحلها المغدور لعلها تغفر لي. بكيت حتى استعرَت الدموع وبنيتُ مدناً من شهقات.

جمعتُ ثرواتٍ وثروات حتى أمسيتُ فيما ترى الآن، وخلال السَّنوات الطويلة كانت روحي تجفُّ وتتجعد حتى فقدتُ الرغبة في كلّ شيءٍ، وفي هذه الغرفة ذاتها قضيت آخر خمس سنوات من حياتي وأنا أرتدي حُلل المساءات الخاوية وحيداً.

إلى أن جئتم ووهبتموني موتي الجميل، حين رأيتكم تحملون الوطن بين جَنبات صَرخاتكم وتتقدمون نحو الموت الذي هربتُ منه دون أن تحملوا أي شيء سوى حُلم الخلاص، سقطتُ فجأة بأعماق الضَّوء، والسَّماء راحت تردد صدى خطواتكم. وصحوت على هولِ الفرصة الأخير، لقد رأيت سعاد بينكم، لقد بُعثت من رحمِ أصواتكم التي كانت وستبقى أطهر من أسرار العارفين، لقد أعطيتموني دون استحقاق مني فرصةً أخيرةً لأنقذ سعاد من جديد.

لم أتردد لحظةً واحدةً، صُعقَ كل من يعرفني بأني عائدٌ للوطن، ودعتُ الوسائد الحبلى بسنواتٍ من الأرق الطويل، إني راحل نحو غيابي الأخير، وعلى هذا الكرسي الذي تجلس عليه أنت يا من تقرأ كلماتي جلستُ وكتبتُ.

إننا حين نهرب من القدرِ الذي هو مصيرنا، سنزهق ما تبقى من أعمارنا في رماد الخذلان نلعق أرصفة الانتظار دون دروب، إنني عائدٌ إلى موتي الجميل، إلى حيث تنتظرني سعاد والوطن الخالد في ملامحكم أيها السُّوريون الأباة، لقد انتظرتِ ثلاثين عاماً حتى جاءت هُتافاتكم مراكب لتحملني إلى حيث سأموت وأنا راضٍ عن نهايتي، أعرف منذ الآن أن كفني قبل الموت سيكون العذاب السَّحيق، سأتطهر قبل أن ألتقي بسعاد.

إنَّ كل أولئك الذين سمعوا صرخاتكم ولم يحملوا الهتافات معكم كوطنٍ كان مفقوداً بين مواسم الوقوف، سيبحثون في النهاية عن موتٍ يكون خلاصهم البعيد ولن يجدوه.

إنَّ القدر الذي هربت منه عقوداً في هذه الغرفة ذاتها عاد وسكن معي فيها، وبدا واضحاً لي أنه لن يتركني حتى يأخذني معه، فالسَّجنُ والزنازين ليست جدراناً وقضباناً وأبواباً موصدةً، إنَّها خوفنا الذي نرضى أن يسكننا كي يولد الطغاة، إنَّها صمتنا الذي يُحيلُ دروب حياتنا لهروب لا ينتهي مما يجب أن نقف أمامه ونصرخ فيه كفى، إنَّها سعاد التي تركتها تموت لأتمسك بحياةٍ أمسيت أتمنى فيها الموت كل يوم، لقد تراءى لي أنني في هذه الغرفة وحدها يمكنني أن أترك حفنة كلمات هي كل ما سيبقى مني بعد هذا العمر الطويل.

لقد عاد الوطن في تيك الخطوات التي اخترتم فيها أن تبعثوا الروح في هذه الجثث المخبأة بين مفارق السَّنوات، هكذا مضت حياتي، وأنت يا من

تقرأ كلماتي لا بد أنك عرفتَ كيف كانت نهايتي، لقد أيقنتُ بعد أن مضى العمر كله أن الاموات الذين يمشون بيننا هم أكثر بكثير من أولئك الذي ندفنهم بأيدينا وهكذا عرفت أني كنت ميتاً خلال تيك العقود التي كنت هارباً فيها من مصيري حتى عانقته العناق الأخير فعدت إلى ذاتي من جديد بعد فراقٍ طويلٍ".

طويت الأوراق ودسستها في معطفي، كان العطش قد بلغ مني حد أني تذكرت تلك الليلة البعيدة، حيث صقيع كانون المصلوب في نبوءات آخر ساعات العمر جمَّدَ طيَّات الطِّين التي وارت أجسادنا العارية في تلك السَّاحة المنسية.

تركت كأس الماء منتظراً على الطاولة الفارغة ومضيتُ، فنار العطش لن تنطفئ بروحي، طالما أن الطُّغاة مازالوا هناك.

لهذا أخفينا الموتى

وهناك أمام جثثِ أولئك السُّوريين تجثو الأحلام غير عابئة بالزمن، تبدو كأنها تراقب ملامحهم وهي تتحسس قبح ذاتها بعد أن خذلتهم فتحولوا لجمالٍ خالدٍ يسكن جبين الوطن المهاجر في خطواتنا المنتظرة ملامحنا أن تعود، والوقت يمرُّ أمامهم وهو يتكئ على بسماتهم التي كم كانت طاعنةً في الشُّموخ، وكل شيء بعدهم يبدو مُراً لا قيمة له، سوى النصر يوماً.

وائل الزهرلوي

لوحة الغلاف إهداء من الفنان نجاح البقاعي



دار إتقان للنشر والتوزيع
itkankitapevi@gmail.com

